زوجة السيدين

دار خيال للنشر والترجمة

تجزئة 53 **قطعة. رقم** 27. **بليمور**

برج بوعريريج – الجزائر-

0668779826

Khayaleditions@gmail.com

ردمك :978-9931-06-779-5

الإيداع القانوني :جوان 2023.

علي هجرسي

زوجة السيدين

رواية

إهداء

إلى ذلك الحلم الذي ظلّ عالقا .
إلى ذلك الزمن البعيد حيث أقف على حافة الجنون.
إلى كل الذين رحلوا في حلمي من الزمن الهارب.
إلى عائلتي التي دفعت ثمن غيابي وأنا رهينة النص.

الجزء الأول

ما الذي يوجد هنا غير هذه الجدران؟

كنت أراها من الخارج وأتساءل دائما كيف هو حال من بداخله؟ كيف يصبرون على ظلامه؟ هل يشبهوننا نحن الذين في الخارج؟

أحيانا لا يمكننا الشعور بالآخرين، إلا إذا دخلنا عوالمهم لنعيش التجربة نفسها. ها أنا اليوم داخلها، لا أحتاج لمن يحدّثني عنها، أو يصف لي المكان. هم ينظرون إليها الآن من الزاوية نفسها ربما، مثلما كنت أفعل، ويطرحون السؤال نفسه أيضا. ستة أشهر مرت داخل هذا السجن اللعين، ولا شيء تغير ، غير بعض الأوراق التي امتلأ بياضها من ضجري الذي كنت أصبّه فيها. أكتب عن ظلام السجن وضوء الخارج، أسافر بين ذاتي والحقيقة هنا وهنالك، كما أسافر بين السطور وأنا أجدف بين الحروف. لا أشعر أنني بحالة جيدة هذا الصباح، أحسست أن الخارج يعجّ بفراغ رهيب، وأنهم قد رحلوا جميعا وأصبحوا أشياء بلا معنى. كأن هذه المدينة لم تعد تحتملني أنا وأحلامي الثقيلة . صرنا دخلاء مثل هؤلاء الجنود الفرنسيين الذين تتعالى أصواتهم من ساحة السجن.

.

اشتقت إلى قريتي وإلى جبالها ووادها الصغير، صديقي سليمان وذهيبة وعمي عيسى. عندما تثقل الجفون، وترتسم أشواقنا عليها، يصنع الأرق محرابه فينا، يمارس كلّ طقوسه، فيحدّد أصوات من نُحبّ ووجوههم، يغزونا الليل فيسلب منّا الأحلام الجميلة ويُلبسها سواد الكوابيس، ويحصرني داخل هذه الجدران، فلا أستطيع التمرّد عليه.

ليلة البارحة راودني كابوس، وكم هي كثيرة هنا. راودني وأطال المكوث: كنت أبدو كهلا؛ بدأ الشيب يأخذ لنفسه مكانا وسط سواد لحيتي، تغيرت ملامح وجهي، وغدت متجعّدة قليلا، لم يبق منها إلا بريق عيني. سنوات طويلة مرّت... لم تكن ستة أشهر بل أكثر، حلم يشبه السفر عبر الزمن، فهل تُراها تغيرت الأماكن ؟

فتّشت عن أوراق اليوميّات؛ تلك التي دوّنتُ فيها منذ مغادرتي القرية ودخولي إلى السجن. بدت لي مترامية في زاوية الغرفة بجانب المرحاض . اقتربت منها لعلّي أجد فيها ما يساعدني على تحديد أي زمن أنا فيه. مددت يدي إليها، وسحبت بعضها من تحت الأفرشة: هي لأسير كان قد مات الشهر الماضي بسبب صعوبة التنفس، والسعال الحاد. تبعتني غيمة سوداء وأنا أقترب من تلك الورقة، فمسحت عنها الغبار المتراكم وتأملتها جيّدا. حينها أدركت من خلال آخر تأريخ أنّي قد قضيت عشرين عاما داخل هذا السجن.

أفقت من كابوسي وقد تملّكني الذعر. لم أعد أقوى على مواصلة الغوص في نومي خشية أن يعاودني. الأحلام في السجن مفزعة...

قاومت كثيرا، أمشي داخل الزنزانة فلا أرى شيئا، أصطدم ببابها الحديدي البارد أحيانا، أرهف السمع لصراخ الأسير الذي أخرجت جثته وبقي صوته يملأ المكان. نال مني التعب، واستسلمت للفراش مرة أخرى. لم يكن حلما عاديا أبدا، أغمضت عيني فراودني الكابوس مرة أخرى، رأيتني في السن نفسه - كما في الأول - لكن خارج السجن هذه المرة، كنت في أعلى جبل القرية: إنها الغيشة، أراها من أعلى القمة تبعد عنّي مسافة ساعة من مسيري أو أكثر. عشرون عاما قادرة على سحب وجوه نعرفها من هذه الحياة ... مدة كفيلة بأن يخطف الموت منها وجوها كانت جزءا من تربة القرية وصخرها.

أما يزالون أحياء، أم مات بعضهم؟ كيف لا والموت يتلصّص ويخطف منا الأحياء: نصبح معا ويمسي بعضنا تحت حجارة المقابر.

أمضي على الطريق الجبلي كي أصل إلى منحدر كنت قد تعوّدت منذ أيام الطفولة أن أسلكه، لكن كلّما حاولت الاقتراب من القرية راحت تبتعد عني شيئا فشيئا، حتى تختفي عن نظري تماما خلف الغيم، ويصير الجبل أكثر علوّا، ومع خوفي وتردّدي أشعر أنني مسافر نحو مكان يهرب مني، ولا يريد اقترابي منه: بي شوق بحجم هذه

الرقعة اللامتناهية على مدّ البصر. كنت أشبه ببحّار يجذف ضدّ التيّار بزورق صغير، كلّما تقدّم مترا دحرجته الأمواج بعيدا، ولم ترحم مجذافه وشراعه. فقدت كلّ رغبة في هذا الاقتراب الذي يجعلها تبعد عني مجدّدا، وعندما جلست تراءت لي واقتربت مني قليلا. ربّما لم تعُد تلك الطرق هي التي تؤدّي إليها وإلى بيتنا. صحوت مُنهكا وأنا داخل هذه الدوامة، أصحو وأغفو، ومن جديد أعود إلى النوم، فيتمكّن منّي الكابوس، رأيتُني أمام القرية مرّة أخرى، لقد اقتربت منها، وجدت نفسي من جهة البيت الشرقية في الطريق الذي كنت أسلكه باتجاه الوادي. ما زالت تحتفظ بتربتها وأزهارها الممتدّة على جانبي الطريق، الصخرة العملاقة المنتصبة خلف البيت تغيّرت وصارت أكثر اخضرارا، كستها الطحالب مذ كبرنا لم نعد نتزحلق كما أيام الصبا. كان السكون يطغى على المكان ويلبس كل شيء. توقفت مكاني وتأملت الجوار مقتربا من البيت ، الأشجار التي كانت في ساحته بعضها اختفى، وأخرى صارت أكثر علوّا ، الظلام يفرش على الحيطان من الخارج في وضح النهار.

بعدما تخطّت قدماي عتبة الباب ، تسللتْ فكرة هاربة إلى رأسي بأنّه هجر منذ زمن بعيد.

- الغبار متراكم على جدرانه المجيّرة المخطّطة في الجزء السفلي منها، كأن من عهدا على تزيينه ، لم يقوما بشيء منذ زمن طويل.

بدا لي ضيّقا مُخيفا، كان واسعا يحتضن كل طفولاتنا وضحكاتنا الهاربة المعلّقة على الجدران . زواياه لم تعُد هادئة كما كانت، العناكب تبدو أكبر حجما وأكثر قساوة ، الأنسجة الكثيفة توالت عليها عناكب وعناكب وسنوات طويلة. لم أرغب في الإطالة بداخله، كنت أود البكاء والصراخ. عيناي لم تعثرا في نظرة خاطفة متفحصة إلى أرجاء المنزل على شيء يوحي أن الحياة ما زالت تدبّ هنا حين هممت بالخروج، سمعت سعالا لامرأة يكون الزمن خطا بها خطوة كبيرة من الحياة، البحّة الهاربة من أنينها، والسعال المتعِب رسما صورة العجوز في ذهني. عبرتُ باحة البيت باتجاه الساحة متعقّبا الصوت، كانت ملتفّة في بياضها، تشد على عصًا جالسة بين قبرين، حانية رأسها، كأنها تهمس لأحدهم، أو تُخبره عن قدومي.

بدا لي القبران متجانسين. طالما اعتقد الناس أن أخي هو نسخة من أبيه، هذا ما أربكني وملأ رأسي وساوس . اقتربت منها بسرعة، وساعدتها على الوقوف ، وما إن نهضتْ من مكانها حتى رفعت رأسها صوبي، فإذا برائحة أمي تتسلل من بين تجاعيد وجهها ، وهي تجيب عن سؤالي الذي لم أطرحه عليها ... ؛ أشارت بإصبعها وقد سكنته رعشة واستبدت به وأعجزته عن الاستقامة:

-هذا قبر زوجي، وهذا قبر ابني الأصغر ، أمّا ولدي البكر فلا أدري أهو حيّ أم ميّت ، قبل أن تكمل كلامها وجدتني أضمها إلى صدري علّها تُخمد قليلا من لهيب اجتاحني فسمعت سعيره بداخلي .

صحوت من كابوسي كمجنون ورحت أبحث عن قطرة ماء علّي أستعيد بها قليلا من الوعي، فتدحرجت من فوق السرير إلى الأرض زاحفا نحو كوب الماء مثل مقاتل جريح لم يقو على الوقوف، ولحظة وصولي إليه والارتشاف منه، صممت على عدم العودة إلى الفراش.

بزغ فجر نهار جديد، وأصبح بإمكاني التمييز بين ليل الزنزانة من نهارها من خلال خيط الضوء الهارب من النافذة الصغيرة في أعلى الجدار. يزورني كل يوم، ولا يكاد يصل لتتلمسه أصابعي حتى يفرّ من السواد الدامس هنا في الداخل.

-وقع أقدام حراس المناوبة، فهذا وقت تبادلهم مهامّ الحراسة. فهم بين يوم وآخر يتغيّرون؛ وجوه الصباح ليست هي ذاتها وجوه المساء، لا مكان للألفة في القفص، كل شيء غريب مجهول تماما مثل سقف الزنزانة وقضبانها. يكون الضابط "كويرنتان Courintin " ربما قادما ليطرح بعض الأسئلة كما اعتاد أن يفعل معي مؤخّرا أثناء تحقيقاته : ما الذي كنت تفعله خارج البيت ليلتها ؟ أين كنت ذاهبا ليلا ؟ هل كنت ذاهبا أم عائدا ؟ ...؛ أسئلة يوجهها تباعا مثل رصاصات الرشاش التي قد تكون أردت حصاني في تلك الليلة.

عندما لا أجيب عن سؤال من أسئلته، يأمر بقية الجنود الذين يصطحبهم إلى الزنزانة بكسر أحد أصابعي بمطرقة بعد أن يُتمّ توثيق أطرافي إلى كرسي يأتون به معهم.

يقترب صوت نعالهم من الزنزانة، فألقي نظرة أخيرة، فتهمس مخاوفي: أصابع قدميّ قد تصير ثمانية. لا يهم، سأصرخ، وسيسمعونني من هم بالخارج، سيجدون على الأقل جوابا لسؤال كنت قد طرحته في هذا المكان نفسه الذي هم واقفون به الآن. أحيانا يحمل الألم بداخله أجوبة طرحها شوق سرى فينا، أو فضول تملّكنا في لحظة عابرة. فتح الباب، دخلوا واصطفوا عند عتبته؛ عتبة السجن ليست مثل عتبة البيت، فالسجن حمال أسًى وألم، وهو يسع الجميع. ها هم وقد توسطهم "كورنتان" وهو يقف في وقاره العسكري، وشموخه الذي ارتسم عند حدبة أنفه، لباسهم وأعينهم صرت غير قادر على تحديد ألوانها، ولا التفريق بينها؛ لأن أقساها صار يسكنني. ما عرفت منها غير خيط من الشمس قبل أن أتذوق دفأه، يهرب منّي لونه بعيدا كورنتان Courintin يشبه الزنزانة، هو قاس مثلها أيضا، نظراته توحي دائما بذلك. العبارة التي ما إن ردّدها الضابط "كورنتان":

- أنت محظوظ جدا أيها الرجل...

حتى اعتقدت للتوّ أن ضوء الخارج غزا المكان، وبعض من الأمل في إطلاق سراحي، لأنني هكذا فهمت ما قاله، أو ربما احببت أن أفهمه، وما إن حاولت استرجاع أنفاسي من وطء فرحة ما سمعته حتى أضاف:

- التجوال في أوقات متأخّرة من الليل قد يسجنك طويلا في المرة القادمة، وربّما يودي بحياتك. آفلو نحكم عليها قبضتنا من كل جهاتها، لذلك فأنت محظوظ؛ لأنّك لم تمُت، ولأنّك ستغادر اليوم أيضا. لم يثبت شيء ضدّك. يبدو أنّ أحد النافذين هنا أو قريبا من هنا - لا أدري- قد تدخّل لإطلاق سراحك.

- لم أكن أصدّق ما كنت أسمعه ؛ سيخلى سبيلي إذًا، أي شخص نافذ يتدخل لأجلي أنا ؟ لم أُعر اهتماما لشروط الضابط؛ سلبوا منا النبض والتراب والشجر والهواء والماء والثواني، كل شيء، ولم يكفهم كلّ ذلك، وها هم يريدون هذه القرية أيضا. كنت دائما أعتقد أن من استولى على قسنطينة، وعنابة، والمحروسة ووهران لن يسيل لعابه قرية مليئة بالخيام والأكواخ في حفرة محاطة بجبال موحشة ...

أمرني حارسان بمرافقتهما إلى مكتب السجن، بعد أن سلماني ورقة قبضت عليها أصابعي بكل قوة؛ خشية أن تفلت مني؛ كيف

لها أن تهرب ؟ قلت في داخلي. لكن، ربما تختفي؛ فالشمس تهرب أيضا من هذا المكان، فكيف لورقة كهذه ألّا تنفلت منّي.

فتح أحدهما باب الزنزانة بعد إشارة صارمة من **كورنتان**، لست أدري لمَ بدت ملامح وجه هذا الحارس أقرب إلى كلب، حينما كان يلهث حرصا على تنفيذ كلّ إشارات سيّده، يا للمسخ !

مشينا داخل بهو طويل، ونزلنا الأدراج باتجاه المكتب. كانت لحظة المشي ببهو السجن مثل تتبع نقطة من الضوء في مكان حالك لا أكاد أصلها أبدا. في الطريق إلى المكتب أعيش لحظة الهارب بتفاصيله الصغيرة، الهروب من أنين الغرفة، ومن الكوابيس. ويتعقّبني صوت الغرفة، ثم يدنو من أذني. خلته اعتاد ألفتي، تلك الموحشة التي طالما كلّمت جدرانها وارتد إليّ صوتي من صدى فراغها الذي علّقت عليه كل أحلامي التي لم أرها. قبل دخولنا إلى المكتب وقفت أنتظر بين جنديين حتى يؤذن لي. كان المكتب قُبالة عينيّ مباشرة، وكذئب تشمّمت المكان: انشددت لرائحة طيبة تسلّلت عبر أنفاسي، فشعرت باسترخاء بدأ يُنسيني تعَبي، لم أحدّدها بادئ الأمر. كان تفكيري مركّزا كلية على خروجي من هذا المكان، ثمّ ما لبثت برهة حتى عادت الرائحة مجدّدا.

عطر زكيّ تذوقته أنفاسي، كان يبعث بعضا من الطمأنينة في نفسي، ويشعرني باسترخاء، عطر كان يأتي عبر نفحات، لا أدري من

أين، ومن صاحبه. بعد أن شدّني إليه صرت أحاول أخذ نفَس أعمق علّي آخذ جرعة كافية تطفئ شهيتي المتضاعفة، فصار كلما زاد عبقه، اشتدت رغبتي في مزيد منه.

انفجر أحد الرجال ضاحكا من وراء باب أحد المكاتب المغلقة التي خمّنت بأن تكون هي مصدر ذلك العطر، حينئذ ساد صمت مفاجئ هناك، ثمّ عاد العطر مجدّدا، فاستجبت تلقائيا وتحفّزتْ حاستي لاستقبال أكبر قدر من ذلك العطر العجيب وأغمضت عينيّ، نعم، إنها هي؛ رائحة الـ... كلا، ليست هي؛ فذلك العطر مكانه ليس هنا. تعوّدت على النفحات أكثر، وعظم التركيز أكثر من ذي قبل، حتى أحسست بأنّ العطر هذه المرّة يكون قد امتزج بجسمي كلّه وتخلّل كل ملابسي أيضا. سمعت بعض التمتمات داخل المكتب، حاولت الاستماع بدلا من الشمّ، لكنّ الرائحة غدت أقوى من أن تقاوم. بدأت تتّضح جيّدا، أجل إنهاهي ... رائحة المسك...

ذكرتني هذه الرائحة الزكية بشيوخ الزاوية، والقرية، بل وبرائحة الشمس. بعد كل صلاة جمعة كنت أشمّها فقط في شيخ الجامع وأترصّده أثناء طفولتي حتى أسترق منها بأنفي. أحببت برنوسه الأحمر أيضا، كم وددت امتلاك واحد مثله، لم أعد مولعا ببرنوس أبي الذي كان أبيض ناصعا.

- ما الذي قد يفعله شيخ الجامع هنا داخل السجن ؟

ربما اعتقلوه؟ كيف يسمحون لمعتقل أن يستعمل مسكا أو عطرا ؟ . ربما اعتقلوه حديثا ولمّا تزلِ الرائحة، لكن لماذا يضحك؟ أيعقل أن يضحك سجين؟ ... أسئلة كثيرة بدأت تشوّش ذهني حتى أنستني العطر وريحه. دخلنا مكتب الضابط الذي أخرج من درجه مجموعة أوراق كانت معَدة مسبّقا على ما يبدو. بقيت واقفا، ناولني قلما أمضيت عليها كلّها، وأمر أحد الجنود بمرافقتي إلى باب المدخل.

الجزء الثاني

في صباح اليوم الموالي الذي يشبه كل صباحات الغيشة(1)، يعمّ الهدوء ورائحة الشمس التي تلوح فوق قرميد البيوت المتلاصقة من ساحة المسجد إلى الوادي الذي ينبع من أعلى الجبل، تهب نسمات من طمأنينة جارفة، لا أصوات في هذا الصباح، لوهلة فقط تبدو القرية خالية من البشر، هذا ما يجذبني إلى الاستيقاظ في هذا الوقت بالذات: خرير مياه الوادي وخضرة بساتين فلاحي القرية.

أسلك الطريق باتجاه الوادي حيث تلتقي زرقة الماء بلون الطبيعة الأخضر. أرفع رأسي أحيانا باتجاه الجبل الشامخ الدائري الذي يحيط بمدخل القرية من الشمال، ما يزال يحتفظ في أعلى قممه بالرمال التي تأتي بها رياح الجنوب لترسو هناك ، فتبدو واضحة وسط الحجارة السوداء.

أزور المكان وكأنني لم أزره من قبل، فمنذ مغادرتي السجن لم أتوان عن فعل ذلك، أتفقد كل أركانه، أبحث عن سرب الحمام ذاك يحلق مثل غيمة هاربة، يحطّ فوق الطاحونة. سرب الحمام

---

1 قرية من قرى ولاية الأغواط بالقرب من مدينة أفلو تقع جنوب الجزائر

ذكرني بها في تلك الصبيحة أيضا ، وبموعد قدومها مثل كل يوم بعد إشراقة ، تأتي هي رفقة نسوة القرية ينزلن إلى الوادي لملء القرب بالماء . أبصر شالها الأزرق من بعيد: تراها هل تأتي اليوم فتكتمل شمسي بعدما لم أعرف غير خيط الضوء ذاك داخل السجن. كانت آخر مرّة التقينا فيها أمام طاحونة الأتراك بجانب البركة الكبيرة. التقينا على عجل وخوف، كنت مسافرا نحو البيّض على الرغم من خوفها وإصرارها علي بالبقاء عندما ردّدت على مسامعي:

-إن الله سيكتب يوم استقلال هذه الأرض لكن ليس على حساب انتظاري ، همست في أذني حينها وأضافت متلعثمة تختبئ وراء دمعة يسكنها الخوف :

أتريد الذهاب مرة أخرى؟...أجبتها بعد صمت وتنهد عميق:

- للأسف، نعم.

عليك أن تبقى. برحيلك هذا لم يعد قلبي يعرف للسكينة طريقا، أنا تائهة وسط الغياب، لا أقوى على الانتظار أكثر.

أجبتها: *يا ذُهَيبة* ، أنا أيضا يقتلني البعد عنك ، وأخلف قلبي بين رحيلي وبعدك ، فأصير بقايا ذكرى ليس أكثر، كثير من النسوة في الوطن من فقدن الزوج والولد ، وهناك من فقدت حبيبها، الناس يفقدون العِرض والشرف بعد فقدان الأرض ، هؤلاء القساة

ذوو العيون الزرقاء القاسية لن يغادروا حتى يقدّم كل بيت قلبا من قلوبه فدية في سبيل هذا الأرض وهذه السماء. تبكي أُلفَتَه، وتشييعه قبل رحيله. عندما نغادر الديار، للالتحاق بصفوف المقاتلين نخلّف وراءنا دموع الأمهات وحرقة الأخوات وعذاب الزوجات والحبيبات ووحشتهن ، ما يميزك عن الأخريات، أنك تشبهين السلام في زمن الحرب، انتظارك إياي يا ذهيبة يؤجل الموت يزيد من دافع الحياة ، فأحنّ إلى العودة إليك مثل وطن بعد طول هجر. كانت هي تلك آخر مرة التقينا فيها ، غادرت هي باتجاه القرية حاملة خيبتها وأشواقي، وغادرت أنا باتجاه الشمال نحو الطريق المؤدّي إلى الغرب، لم أكن أقوى على الرحيل ، لكنني كنت راغبا فيه. كان عليّ القيام بتلك المَهمّة . كانوا يحتاجون إلى وصول المعلومة بشأن الأسلحة التي ينتظرونها ، قال لي صديقي عمار البَريكي(1) إنّها إيطالية ، لقد وضعوا ثقتهم فيّ ، ولا بدّ من التضحية في سبيل ذلك . يحضرون للمشاركة في الثورة ويعتزمون تعميمها لفكّ الحصار بيننا وبينهم ، "أفلو" باتت جنة الفرنسيين على وجه هذه الأرض، و"البيّض" على فوهة بركان من الانفجار.

1 - نسبة إلى مدينة بريكة الواقعة قرب بسكرة شرق جنوب الجزائر.

أصبح يقطنها كثير من المعمّرين، المحتشد في وسط المدينة يقال أنه يحتوي أربعمائة سجين سياسي، إن انطلقت هناك في البيّض سيستهدفونها لفك الحصار عنها ... جعلوها باريس... أجل لقد صنعوا لأنفسهم باريس أخرى هنا.

كان لا بدّ من السير قرابة ساعتين من مدخل القرية ، مرورا بالمنحدرات وسط الغابة المخيفة. لا يمكن استعمال الطريق خوفا من مداهمات العسكر للمنطقة، بعدما استشعر الفرنسيون تحرّكات مشبوهة رجّحها على أنها لمجاهدين أو فدائيين بمنطقة "جبال القعدة" .

اخترت المسالك الغابية حتى أصل الطريق الرئيسي؛ فأنا أعرف ربوات الشوابير ووديانها، كما أعرف الغيشة. طريق الذهاب كان نفسه طريق العودة، لكن للقدر كانت مشيئة أخرى هذه المرة ، فبين رغبة الأول ومشيئة الثاني غيبتني قضبان المحتشد . مكثت ستة أشهر داخله. من قال إني سأمكث في "أفلو" داخل ظلامها، وأنا الذي حسبتها باريس في صغري، عندما كنت أزورها رفقة والدي، كانت مليئة بالكولون. الناس لا يتحدثون غير الفرنسية، التي كنت أفهم منها بعض الكلمات، والبعض الآخر كان يتحدث لغة سريعة تشبهها.

قال صديق لوالدي إنهم إسبان وقلة أخرى يهود، لا أدري كيف أتذكر كل هذا وأنا أقف على حافة الوادي .

لم تأتِ وربما لن تفعل؛ فقد تأخر الوقت بعض الشيء، خصوصا وأنّ نسوة القرية ممن كن يرافقنها إلى المكان، قد أتين وتزوّدن بالماء ورجعن، لم يبق سوى فلاحي القرية يتناوبون على تحويل ساقية الماء لسقي المحاصيل.

أسير باتجاه القرية مخلّفا ورائي الزرقة والاخضرار وسواد الحجارة، وبقي جزء من ذاكرتي في طاحونة الأتراك. حين وصلت القرية رحت أتفقد أزقتها ، وأحث الخطى فأتوغل في زقاق من جهة وأنعطف من زقاق من جهة أخرى، وأصل عند ساحة القرية ثم أعود أدراجي إلى نهاية الطريق حيث يقابلني بيت ما يمنة موصد الباب . عدت إلى زقاقنا منكّس الرأس منكسر الذات .

- اه تعبت من هذا الرأس الذي امتلأ، فلم أعد قادرا على حمله، أهو الحب يا ذُهيبة؟ أم هي الحرب؟. أم هو ضياع للقلب بينهما؟

أعود إلى زقاقنا الذي تتراءى لي منه مئذنة المسجد الصغيرة ، أعد الخطوات هذه المرة ، يتسارع إيقاعها كلما زادت الهواجس والوساوس في رأسي واستقر بي شيء من الهلع مخافة أن تكون قد لقيت حتفها أثناء الحرب ولم يخبرني أحد، ربما تزوجت ولم يخبروني ...

من عساه يفعل ويريحني غيرك يا سليمان.

الفرنسيون ما عادوا يفرقون مؤخرا بين نساء وأطفال وشيوخ... المداهمات تزهق كثيرا من أرواح البشر والحيوان. كان هذا هو الاحتمال الذي رجحته، صارت للموت رائحة نشتمها ، مثلما يتسلل المسك إلى أنوفنا عندما نرى أصحاب البرانس الحمراء من التيجانيين، تتسلل رائحة الموت كذلك عندما نفتقد أحدا في الحرب.

ما هي إلا لحظات حتى بدا لي وجه مألوف داخل المارّة وسط هذه الضوضاء، التي تسكن مخيلتي وتعرض أقسى المشاهد وأعتاها على الاحتمالا. اقترب مني سليمان وعانقني بشدة. لم أكد أميّز وجهه، بدا لي نحيفا، طلب مني أن أرافقه إلى بيته، فسرنا في الزقاق المحاذي، وانعطفنا يسارا بجانب المسجد، صعدنا إلى أعلى الربوة، وصلنا البيت، وجلسنا في الباحة تحت شجرة التين العملاقة.

قبل أن يسترجع أنفاسه ألقيت إليه بسؤالي الذي أثقل عليّ بإجابات صادمة ومحتملة.

- وش راه صاري يا سليمان؟ أين سكان القرية؟ أنا لا أراهم .
- لا تراها أم لا تراهم؟

عندما لا أراها يختفي كل العالم من حولي

أثناء فترة غيابك ، طرأ بعض الجديد على القرية؛

صار عسكر الفرنسيين يمرّون بالقرية في كل يوم، مثل هذا الوقت نزولا إلى الجنوب ، ويسلكون الطريق المؤدي إلى الزاوية، كأنهم يمشطون المكان، أو بالأحرى يفعلون ذلك فعلا.

في طريق عودتهم يداهمون القرية وأزقتها، تتوقف عرباتهم، فيترجّل جنودها بين الخيام والبيوت، ويحدث الجنود الذين يمتطون الجياد هلعا بين الشيوخ والأطفال، فتفرّ النساء مخافة التحرش وكل ما قد يمسّ عرضهن وشرفهن.

-وذهيبة يا سليمان؟

لا تقلق إنها ...

ما إن تلفظ بهذه الكلمات حتى قاطعته أصوات المحركات وضجيج بدأ يتعالى ، ويلف القرية ويحول أمانها إلى خوفها المعتاد: أصوات حوافر الخيل على الأرض يردّدها صدى الجبال المحيطة بالقرية ، امتزج صهيلها ببعض عبارات الجنود المنطلقة من حناجرهم كالنار، فأبدت إصرارهم على العدوان .

- تجمدت الكلمات في فم سليمان و كسا بعض من بياض الصدمة شفتيه . بدا لي مرعوبا ، ومدركا بأنّه لم يعد بحاجة لإخباري بما كان يجري سابقا ، أجابني خوفه دون أن يتكلّم.

نهضت من مكاني بشعور نصف مبلّد، وخرجت من البيت وقد تبعني سليمان الذي أمسك بالباب حين أشرعته عن آخره مخافة

أن يصدر ارتداده صوتا ما، فيلفت انتباه الجنود. زحفنا على بطوننا من الباب إلى ربوة غير بعيدة، لامس رأسي صخرة، ونظرت بعيني اليمنى من شق صغير، فرأيت العسكر يقفون وسط ساحة القرية حيث تجتمع الأزقة مطلة على الجامع، رأيتهم يتسللون منها، فيخرجون من جهة الشمال حيث الطريق الفلاحي المؤدي إلى الواد، أرهفت السمع، فإذا بالقايد يكرّر عبارات التهديد والتحذير من إيواء الفلاقة، ويطلق وابلا من العبارات الغاضبة .

- اكتفى عسكر الفرسان بتطويق منافذ القرية، أدرت عينيّ قليلا في اتجاه اليمين حيث ترجّل القايد من عربته وهو يمسك بعصا سوداء صغيرة شبيهة في لونها بنعله المرتفع إلى حدّ ركبتيه، وكان إلى جانبه ضابط شاب بالكاد عرفته؛ فملامحه لم تبدُ غريبة عني، إنه يشبه "كورنتان" ربما عيناه تميلان إلى الزرقة أكثر من الاخضرار حين كان في زنزانتي، ملامحه الآن غير واضحة كثيرا. النظر من صدع الصخرة لا يختلف عن النظر من ثقب بالسجن: الشاب لا يتجاوز العشرين ربيعا، أو يتجاوزها بقليل، وهو برتبة ضابط.

تبّا لهذا الربيع إن كان يمدّ بصلة لهؤلاء الغزاة، هؤلاء الذين - ببرودة أعصاب - يقتلوننا ويشرّدوننا، ويستبيحون دماءنا. أعمارهم تقاس بالشتاء الموحل لا بالربيع، وبوديان الدم التي بيننا لا بزهر الفصل؛ فهم يصبّون قسوتهم على من لا دفء لهم.

-أجل إنه كورنتان، عرفته بعدما تقدّم باتجاه الربوة. ما هي إلا لحظات حتى عاد الجنود. اجتمعوا حيث افترقوا في البداية، وانسحبوا من القرية مخلّفين ظلالا من الخوف وروائح نتنة من الغزو لا تتحمّل. وقفت، وظلَّ سليمان مُستلقيا حتى أعلمته برحيلهم. عدنا إلى داخل البيت وجلسنا. يا لَلفطنة؛ رغم كلّ المخاوف التي ألمت بنا، لم ينس شيئا ممّا دار بيننا، وعاد إلى الموضوع، وأجابني عن سؤالي:

تعودنا مؤخرا على هذا التمشيط، كأنهم يبحثون عن شيء،

أما ذهيبة فقد رافقت عائلتها إلى القرية المجاورة، شقيقتها زهرة تزوجت هنالك منذ أسبوع من شخص اسمه نور الدين.

- ربما سيعودون في الأيام القادمة، فلا تقلق...

المهم أنك بخير، الحمد لله على سلامتك.

اعتقدنا جميعا أنك قد مت، وهي أيضا ظنتك قد تركتنا إلى الأبد ، لقد حزنت عليك كثيرا، أين كنت يا لعرج؟

- حكاية طويلة، سأعود إلى البيت لأستريح، نلتقي فيما بعد.

تركت سليمان وعدت إلى البيت محمّلا بعناءات السفر والشوق.

عند عتبة الباب تراءى لي مربط الحصان الذي لم يعد معي إلى القرية هذه المرة، خلّفته هناك يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام ضريح سيدي عثمان بجبال الشوابير عندما اقتادوني إلى السجن. ليتهم

تركوه يستريح وقتلوه، ليت تلك الرصاصة اخترقت جسدي بدلا عن جسده. كم هو محزن وقاس أن يموت متعبا من أحببناه .

كأن القدر أراد له أن ينام بجانب القبّة إلى الأبد، حتى لا يدفن خارج الذاكرة، كانت تلك إشارة إلى أنّ الخالدين فينا أرواح صادفها الموت في أماكن لا تنسى.

الجزء الثالث

ينادونني ذهبية ويناديني لعرج بذهيبة تصغيرا للذهب. .أحسست بالصدأ يتملكني في ذلك المساء الموحش مثل غيمة خريفية في ظلامها المفاجئ، تبدّدت أنوار القرية في عيني، كأنّها تغرب مرافقة شمس هذا اليوم. مسافرة وراء الجبل باتجاه من رحل، كلّما تذكرته أتحسس يديه. عندما استدار نحو الجبل سالّا أصابعه من كف يدي ليسلك طريقه، كان يجتث انتظارا أنا بحاجة إليه. تركني متعبة من مخاوف البعد، وقد أطال الغياب. لم تبق منه سوى كلمته تتردّد على مسامعي "ذهيبة ". أدركت أن الظلام بات يسكن عالمي في عز النهار، لا معنى للأنوار إن لم يغزُها بريق عينيك يا **لعرج.**

مازالت عيناه السودوان ترافقاني في كل مكان، تأتيان إليّ في طيفه الزائر عند مدخل البيت، في زقاقهم، وعلى التربة التي داستها قدماه. لم أعد أرغب في زيارة الوادي ولا رؤية الطاحونة مخافة أن يصبح طيفه حقيقة، أذكر الليلة التي فيها رأيته بحلمي؛ كان يلتف بكفنه الناصع حافي القدمين والدماء تسيل من رأسه راسمة خطا أحمر من جبهته إلى لحيته. رأيت خياله في الباحة، وأراه في ساحة الجامع. رأيته ماشيا في طريق "الشوابير". تتزاحم أصوات البكاء وصراخات من نسوة القرية داخل رأسي ثم تعلوها صرخة تنادي اسمه: **يااااااالعرج.**

كان يحدثني عن أسفاره نحو الغرب، قادما نحو **الغيشة،** وكان ما أخافني وأبكاني عليه هو رؤيته واقفا عند الباب وعبق البخور يتصاعد منه . عرفنا عن الأحلام أنها صور لمن اشتقنا إليهم تتسلل أثناء نومنا، فكيف نفسر اشتمام رائحتهم أيضا؟

قال لي ذات مرة في الحلم:

"السرج يا ذهيبة". حاولت أن أفهم ما يرمي إليه، لكنه لم يفسر أكثر ولم يضف شيئا آخر.

حتى عندما تحدّيت مخاوفي أثناء الكابوس، وقرّرت مواجهتها، مشيت إليه بخطى مرتعشة ومختلطة بين شوق وخوف، مددت إليه يديّ وإذا به يتلاشى كما يوم رحيله عند الجبل، أصبحت متقبّلة لأمر وفاته دون أن أتقبل فكرة عدم لقياه إن كان ما يزال حيّا.

صباح حزين من دونه أيضا، واقفة أمام الباب أنتظر خبرا عنه من سليمان، بينما توقفت إحدى العربات من القوافل المارّة بالقرية باتجاه الجنوب، وعلى متنها نسوة ورجال، الأكيد أنهم ذاهبون إلى الزاوية؛ فكثير من الناس يتردّدون على التيجانيين طلبا لبركاتهم وتيمّنا بهم. كانت **أُمَّا يامنة** تقف ورائي تسترق النظر من خلفي.

- توقفت العربة...

نزل منها سليمان الذي كان في مهمة البحث عنه، فهو لم ينم جيّدا منذ اختفاء صديقه.

مرّ بالقرب من منزلنا يحمل سرجا، وصعد به إلى بيته يجرّ خيبته حزينا كأنّما يحمل جثة. كان سرج حصانه، أجل... تجمّدت في مكاني وتسللتْ رعشة هاربة إلى قلبي، أدركت أنّه كان في الحلم يقول الحقيقة.

"السرج يا ذهيبة". لا بد من أنه يريدني أن أحتفظ به لغاية عودته، أو ربّما هو نذير شؤم بوفاته. كانت فوضى الأفكار ترتب لنفسها مكانا تستريح فيه داخل رأسي. سارت القافلة مُكملة طريقها باتجاه الجنوب، حاملة اليائسين والمتضرعين. كنت مشدودة الذهن أمام ما يحمله سليمان، وكانت "أُمّا يامنة" تتعقّب القافلة بنظرها إلى أن غابت عن الأبصار. وضعت يدها على كتفيّ وأدارتني إليها، أخرجت من تحت حزامها قطعة صغيرة من الورق ملفوفة بجلد، مربوطة بخيط أحمر، وناولتني إياها:

-احكمي يا بنتي وأنوي برك، بلاك ربّي يفرّجها عليك.

- هذا واش يا أمّا؟

حجاب من نهار درتو، رزقني ربي بك وأصبحت أمّا، لا بد أن نعاود زيارة المكان حيث يذهب هؤلاء الناس على متن قوافلهم.

- التميمة التي ناولتني إياها أعادت إلينا أحاديث المساءات السعيدة.

- كانت أما يامنة تحدثني عن هؤلاء التيجانيين وقدرتهم العجيبة في شفاء المرضى والمجانين والنسوة العاقرات، مذ كنت طفلة عندما بدأت أنصت إليها، حدثتني عن نفسها عندما كانت تتردّد عليهم رفقة والدي قبل أن تحبل بي؛ فشيوخها ساعدوها على تحقيق حلمها في أن تصير أما.

كانت تقول إن دعواتهم تصل إلى الله أسرع من باقي دعوات البشر، بل إن لهم حكمة في تيسير الأمور.

- لولاهم لما حبلت بك يا ذهيبة.

- أستغفر الله يا أمي، لا تعيدي مثل هذا الكلام أرجوك.

- اسمعي يا ابنتي:

منذ علقته على حزامي انفرجت كلّ همومي، ورزقت بك بعدما أحرقت قلبي أعوام من الانتظار لم تطفئها إلا سماع كلمة "أمي" منك فأصبحت مثل كل نسوة القرية، لطالما أردت أن أصبح أمّا لكن العين و"التابعة" لاحقتاني طيلة خمسة أعوام. كان أبوك راضيا بمشيئة الله، وكنت كذلك، إلا أن صرخة الأم في داخلي لم تكن قادرة على الصمت. لم يرفض لي والدك طلبي، وغادرنا في صباح اليوم الموالي بعدما أبديت له رغبتي في التبرك. وصلنا إلى

القصر، تبرّكنا بـ"لالّه يمينة" مساء، وقصدنا الزاوية، بعدها عند مدخل غرفة أحد المشايخ كانت نسوة منصرفات من عنده، وأخريات في طريقهن للدخول.

وقفت في الصف أنتظر دوري.

كانت النسوة أمامي يتقدمن واحدة وراء الأخرى باتجاه المقام حيث يجلس الشيخ في مزاره، تراءت لي الشمعدانات المذهّبة وبعض صحون الحناء وخيوط من الدخان المنبعثة من أعواد البخور المعلقة على الجدران، شممت رائحة الجنّة، الكل في أهبة وصمت للنزول بين يدي الشيخ. رأيت إحداهن انحنت على ركبتيها وقبلت يدي شيخ الزاوية وتلمّست ثيابه، أمسك صحن البخور وأداره حول رأسها سبع مرّات، واضعا يده الأخرى على جيدها وهو يحرّك شفتيه متمتما بكلمات عجزت عن فهمها، النسوة النحيفات يخلّصهن من العين بفضل الصحن والبدينات يضع يده على القلب ليستخلص منه المرض ويمسك به بكل قوته، يبعث أمانا وشعورا بالراحة داخلهن، تنهداتهن وإغماءاتهن كانت توضّح أنها راحة وسكينة لم يعرفنها من قبل، كنت من اللواتي خضعن للعلاج بالصحن غير أني تمنيت تلك السكينة والحمرة التي خرجت بها بعضهن من عند الشيخ.

كان يضع يده مكان الألم ويطرد الشر المخبوء به ويخبر أزواجهن بأن مرّة واحدة تكفي للعلاج، وبضرورة العودة لأخريات حتى وإن استلزم الأمر المبيت.

كن عشرات من النساء والرجال يدخلون إلى الشيخ عابسين ويخرجون مبتسمين كما لو أنهم تلقوا بشرى أسعدتهم.

عندما وصلت إلى سيدي انحنيت، كان لي شرف تلمس يديه وبعض من ثيابه الحمراء .

- *ادعيلي يا سيدي ببركتك يرزقني ونرجع أم ...*

نهض من مكانه واقترب مني، وضع يده على بطني وقال:

-ربي سيرزقك وأعتقد أنه لن يطول انتظارك، وسيأتي ببركة مولانا والنبي الكريم. حبلت بك في العام الذي بعده، ولم أعترض على المكتوب إن يكن القادم بنتا أو ولدا.

- عندما أنهت أما يامنة كلامها، ربطت التميمة على حزامي وتمتمت بما ردّد الشيخ قبل عشرين عاما. انصرفنا من الباحة، وقصدت غرفة زهرة أختي وهي تخيط فستانها الأخير تحضيرا ليوم زفافها الذي سيكون خلال هذه الأيام، تضع عليه لمساتها الأخيرة، ولم تكن تتكلم إلا نادرا. لم تبتسم منذ أن مات خطيبها الناصر، لم يترك لها أبي فرصة لنسيانه، يعالج جرحها بجرح أكثر عمقا، جرح يظهر في عينيها الذابلتين.

في صباح اليوم الموالي كنت أقف عند الباب محاولة استراق كلمة هاربة من أفواه المارة تتعلق بسليمان أو السرج ، ربّما قد يذكرون اسمه، لكن لم أصل إلى شيء يطفئ هذا الوهج الجارف.

عدت إلى البيت أبحث عن شالي وأنا مترددة بشأن الخروج. تراءت لي صورته بين المارة والناس، استحضرته البارحة في أحاديث "أمّا يامنة" عن الزاوية، وكيف كان متعلّقا بها، ويجلس في حضرة مشايخها. كان يحدثني عن حبّه إياهم، وزياراته القصر، وكيف انقلب حبّه إلى كره بحجم العالم. كان جنونا أن أقف أمام بيت سليمان مقتربة نحو إصطبله متفحصة مربط الفرس والمكان الذي يكون قد خبأ به السرج. تفحّصت المكان حتى بدا لي السرج ملطخا بدماء... عدت إلى البيت في صمت رهيب، وأحسست أن قُواي تنهار. صرت عاجزة عن مجرّد المشي بسبب دوار انتابني، أحسست بأصوات الناس في الأزقة متعالية من حولي رغم صمتهم، فبدت لي من عباراتهم ةكأنهم يقولون:

-أمسكوا به...

-مااااااات ...

كم كانت شهورا مضنية، مليئة بأحلام اللقيا وكوابيس الحقيقة، شعرت بالأنثى تموت بداخلي وأنا مرهقة الحواس، مات كل الرجال برحيله ولم يعد للأنوثة حسّ دون أناملة.

أحاديث "أمّا يامنة" وحدها هي التي كانت تجد طريقا إلى عزلتي، غير أنني لا أكترث بحديثها عن الروحانيات والتبرك. كنت أعلم أنني لست بحاجة إلى من يتوسط لي عند الله، هذا ما كان يقوله لعرج عندما ترك الزاوية والتحق بالثورة بعد عامين من اشتعالها:

"القدر تصنعه أيدينا، وتكون فديته جرعات من الألم والأمل، ولا تصنع كمشة من البخور". كنت أعيش أياما عصيبة خلال فترة غياب لعرج؛ فقد بقيت معلقة بين أمل عودته ووصول خبر وفاته في أية لحظة، لا أغادر البيت في أغلب الأحوال، أعيش على الذكريات وأسترجع منها اللحظات التي جمعت بيننا في بساتين القرية والوادي، في الوقت الذي كانت فيه أمي تحضّر لزفاف أختي زهرة التي زوجها والدي بنور الدين أحد أبناء "القياد" في القرية المجاورة .

أمي تحاول المحافظة - قدر المستطاع - على سعادتنا؛ فهي تسهر على معاملتنا خصوصا أنا، لأن قلب الأم فيها حدس مروري بأيام حرجة جدا تستوجب منها الوقوف قريبة مني في هذه الفترة بالذات.

أصبح الناس في القرية يعيشون في خوف أكبر من ذي قبل؛ فالمداهمات عسكرية للمنطقة والغابة الكثيفة المحيطة بالقرية أضحت كثيرة. القوات الفرنسية تشدد الحراسة حول أغلب قرى مدينة أفلو المرابطة على الحدود الغربية، تواصل فرض حصارها

بين منطقة البيّض وأفلو حيث محتشد يضم أسماء سياسية مناضلة تقارب الأربعمائة، خصوصا وأن الثورة قد انطلقت في أرجاء كثيرة من البلد؛ فهي لا تريد لهذه المنطقة الغابية أن تصبح ملجأ للمجاهدين أو بؤرة ساخنة فتزداد صعوبتها في مقاومة المتمردين عليها .

بتٌّ حزينة بعدما حدّد يوم زفاف زهرة، التفَفْتُ في شال أسود وجلست في غرفتي، لم أخرج كما كانت أفعل كل صباح، وأحدث نفسي. اليوم موعد زواج زهرة آن لمكان آخر أن يصبح خاليا من ابتسامة صاحبته، انتهت من طرز فساتينها وتمّ تحضير كل التفاصيل الصغيرة لانتقالها إلى بيت زوجها، لم أكن لأخرج من الغرفة لولا أن طلبت منّي أمي مساعدتها في توضيب أغراض العروس، حتى زهرة لم تكن تتكلّم خلال الأيام الأخيرة إلا نادرا، أخبرتني - فقط – أنها لن تتعود ربما على أهلها الجدد بسرعة،

لذلك طلبت مني مرافقتها رفضت في بادئ الأمر لكنني وافقت خشية تعكير صفوها.

وصلت القافلة من القرية المجاورة، اهتز زقاقنا بطلقات من بارود البنادق الكثيرة، لا أدري كيف سمح لهم باستعمالها، آخر مرّة رأيت أبي رفقة رجال القرية يخبئون بنادقهم في أكياس أخذها

لعرج وسافر بها نحو الغرب، كيف ينتزعون أسلحة منا ويتركونها لغيرنا.

حينما كان هودج العروس في انتظارها أمام البيت، كان أبي قد فرغ من إخراج أشيائها ليوضبها في العربة بعض الرجال، كانت زهرة تقف وسط باحة البيت لوحدها ملتفة في برنس العرائس.

أعادت لي زهرة أثناء تأمّلها أرجاء البيت في نظرة الوداع صورة ذاك الحلم، استدارت وتفحّصت المكان بكلّ جدرانه وقرميده، نادى والدي:

على بركة الله يا بِنتي ... كان لتلك الدمعة المتربعة على خدها أثناء تأملها زوايا البيت وخروجها منه وقعها المؤلم في قلب "أمّا يامنة" التي بللت دموعها وجهها بالكامل. كان صعبا أن نبكي بكاء الأموات على الأحياء من دون صراخ في يوم للفرح .

الجزء الرابع

كانت الثورة على أوجها ضد عسكر فرنسا في جبال شمال البلاد وغربها وشرقها وفي صحرائها، أما سليمان فلم يكن يعرف عنها سوى ما كان يرويه له لعرج عند عودته إلى القرية، كان الكفاح ضربا من الخيال بالنسبة إلى أهل "الغيشة" بعد قرابة عام من خروج حبة الرصاص الأولى. لا ينوي رجل من القرية التفكير بالوقوف بوجه الفرنسيين، أو حتى في الوقوف بوجه عسكري واحد منهم، لم يعد لسكان القرية أسلحة، فبنادق الصيد جمعت ورحلت إلى الغرب.

- أحنا واش شدّنا باه نديرو كيما خاوتنا لُخرين؟

سؤال يكرره سليمان للعرج ويردده بين شفتيه عندما يكون وحيدا. هذا ما كان يتبادر إلى ذهنه، يتأوه ويضرب كفّيه ببعضهما. كان يقوم بزيارات ليلية إلى صديقه لعرج بعدما عاد من اختفائه. يعرف متى يتسلل ويفعل ذلك. وقت المغادرة والعودة أصبح مدروسا وكلمة السر هي صافرة بلحن غيم العشوة ... كان مفتونا بالهوى الشاوي

والصحراوي بل كثيرا ما كان يمزجهما بـ"ياي ياي"(1) فيأخذه الطرب بعيدا عن محنه، ولو للحظات... يطلق اللحن قبل وصوله إلى بيت صديقه، فيجد الباب مفتوحا ولا يطيل الوقوف خارجا، كما لا يحتاج إلى قرع الباب.

زار سليمان صديقه في هذه الليلة عله يخفف عنه بعضا من وحدته، وصل إليه واستقبله لعرج في غرفته. أمطار الخريف تزامنت مع بدايته مصحوبة برياح باردة تمنع عنهم الجلوس في الخارج عند الباحة مثل أيام الصيف، جلسا وأحضر لعرج كوب القهوة الكبير:

- تعبت أخويا سليمان...لكان ما هي والله مانزيد نرجع .
- وين تروح؟
- أنموت في الجبل.
- ربما ما تنقله إليهم من معلومات وأسلحة يجبرك على العيش وليس الموت، لا حق لك في الموت، بل وحتى التفكير فيه يمنع عنك.
- تعرف يا سليمان؟ أضاف لعرج ثم صمت قليلا .
- أنعم واش ؟ قول

---

1 - لون غنائي صحراوي خاص هو عبارة عن مواويل متصلة ببعض وقلما يدخلها إيقاع. يعد خليفي أحمد اشهر من غنى هذا النوع الذي يستثمر أشهر القصائد الشعبية.

- عندما أكون في الغرب يختلجني شعور غريب؛ فالناس هناك يفصل بينهم وبين الموت خطوة، شعورهم بالتكبيل أثقل كاهلهم، لقد نفد صبرهم يريدون تنفس هواء فيه كرامة، يريدون أن يكونوا مثل بلّارج يطيرون بكل حرية إلى أي مكان في أرضنا الواسعة، هكذا هي أحلامهم تماما مثل كل إخوانهم في باقي هذا البلد المعذب.
- ألا تتحرر كل البلاد لو غادر الفرنسيون؟
- بلى، لكن يريدون مواصلة المشاركة في صناعة الثورة مثلهم مثل باقي جهات البلاد، ما زالت دماء مقاومات الإسبان والفرنسيين تسري في عروقهم، ولقد تحرروا من مخاوفهم، وانتظروا كثيرا موافقة القيادة، لكنها تصرّ على عدم إشراك المنطقة الغربية حاليا، لضرورة أمنية، رغم كل هذا يتمرد حماسهم أحيانا على القرار.

ارتشف سليمان آخر قطرة من الكوب وقال :

- كيف ذلك؟ أنا لا أفهم هذه الأمور، حدثني عن سلاح وعن القنص هذا فهمه أيسر علي. حدثني عن القتل وشفي الغليل يا لعرج أنا لا أفهم كلاما آخر.

- أصبح الناس لا يطيقون الانتظار أكثر، مقت الفرنسيين بلغ درجة قصوى وهذا قد يعجل باندلاع الثورة قبل الإذن بها. والقادة في البيض يرون أنه كان من الأفضل لها أن تكون شاملة ليلا مع النهار، بل هذا ما يراه كلّ فرد قادر على حمل السلاح هناك. ثم إن

الكمائن التي أقاموها وما زالوا يفعلون، ليست من باب التمرّد على القيادة، إنها وليدة الاختناق بالغزو ونابعة من حب هذه الغيشة وكل غيشات البلد، فكيف يمكن إقناع هؤلاء الغاضبين أن التريث وعدم القتال يصب في مصلحة الثورة؟ صعب جدا.

أضاف سليمان سؤالا آخر. بعد أن استرق النظر إلى الخارج من ثقب الباب، عاد وجلس في مكانه قائلا :

-متى سيأذنون لها في رأيك؟

-لقد بدأت تفكر مثلي، فهو السؤال نفسه الذي طرحته مرة على قائد بشوش نشط كلامه كله يقين بأن الغيث قريب، شاب تحطّه الغيشة على جرحها يبرأ. هو مكلف بتجميع الأسلحة في البيّض.

كنت لا أتوانى عن زيارة عمار البَريكي، وهو فتى من الشرق قدم هاربا بعد أن صار مطالبا في بريكة. الرسائل كان يوصلها إلى القائد مولاي إبراهيم. لم ألتق به أبدا، طالما حدثني عمار عن كبريائه وتمرده، عن كتم حقده لهؤلاء الفرنسيين، كان يشفي غليله بجندي أو اثنين يصفيهما ويأخذ أسلحتهما ويحلف أن ذلك حق مشروع قبل أن يكون واجبا.

خرجت صباحا خلال أيام وجودي هناك رفقة عمار البريكي لمرافقته في جولة قصيرة كما سمّاها هو.

-هل الجولة داخل المدينة

كلا سنخرج منها، أجابني عمار.

استغربت مجازفته هذه، إلا أنني رافقته، خرجنا من البيت وقطعنا الشارع الرئيسي في وسط المدينة، وتوجهنا جنوبا، امتطينا أحصنة كان قد أتى بها صهر عمار الذي قاسمه بيتا وزوّجه ابنته البكر.

قطعنا بعضا من الدرب والمسير ثم انعطفنا باتجاه الشرق. كانت ساعة من السير كافية للوصول إلى ذاك الجبل الأحمر، لم أكن أعرف أي مكان كنّا نقصده، لكن عمار كان يعرف، غير أنه يفضل الصمت ويكتفي أحيانا بكلمة واحدة.

قال:

-هذا جبل بونقطة.

تعال، اليوم سوف تلتقي بأشخاص هامّين، لطالما كنت الوسيط بينكم.

- أتقصد أنني سألتقي بالقادة؟

- لم يدّعوا يوما هذا الشرف، ويرون أنفسهم ثوارا غاضبين، ومضحّين في سبيل الشرف، لذا فهم ينتظرون بشوق إذن القيادة من وهران، إلى الآن فما يفعلونه هو تجميع السلاح وإرساله إلى البؤر الساخنة في الغرب والشمال.

ربطنا الأحصنة إلى شجرة خلف ربوة بجانب طريق اجتنابي، وبدأنا في صعود الجبل، كانت رحلة شاقة حتى كدت أجزم لعمّار أن المكان خال ولا يمكن لأحدهم الصعود إلى هنا والقتال في الوقت نفسه. على من يصعد الجبل أن يختار بين توظيف جهده للقتال أو الصعود، أما الاثنان معا فيتستوجب قوة بدنية كبيرة، وصبرا على الشقاء.

وصلنا إلى المغارة في أعلى الجبل، أحسست بسائل ساخن داخل حذائي يتسلل بين أصابع قدمي اليمنى، اعتقد أنها مياه إحدى البرك التي دست فيها، إلا أن الحمرة بدت لي ظاهرة فوق الحذاء.

-تراهم هل يصعدون بدمائهم وينزلون كلما فعلوا ذلك؟

حاصرنا بعض الجنود وطلبوا منا الانتظار، بينما يؤذن لنا بالتقدم نحو مغارة الاجتماع، بعد مدة عاد إلينا جندي وهمس لنا بالمضي معه، فسرنا خلفه حتى وصلنا إليها، دخل عمار أولا وأذن لي أن أتبعه ففعلت. قدمني إليهم بعد أن بادرتهم بالتحية. كنت أرى وجوههم رغم الظلام.

سي بوشريط، مولاي إبراهيم وأسماء أخرى لم أعد أتذكرها.

كانوا يجلسون في حلقة دائرية ذكرتني بأيام وجودي بالزاوية، صورة الحلقة أعادت إلي رائحة المسك المنبعث من شيوخها .

الأسلحة والبنادق المعلقة على ظهور هؤلاء أطلقت رائحة البارود والرصاص في ذهني، الأشياء تحمل عطورها فأحدّدها مما أرى. حلقة الزاوية تلك من كل صباح يوم السبت هي التي جعلتني أغادرهم.

الفرق بين الحلقتين فرق بين من يخطّط لدحر العدو ويختار الكهوف لحياته طمعا في أن يعيش الآخرون سلاما ثمنه هذا الظلام وحجارة الجبل وأصوات الموت المترصد، وبين حلقة في قصر يعيش أصحابه حياة الملوك؛ يأكلون ويصلّون ويبكون، يمارسون كل شيء ما دام الله لا يحاسبهم على أفاعيلهم، بل إنهم يمنحون بركاتهم لمن يعانون الانكسار ويجعلونهم سعداء. كنت أحب ما يفعلونه تجاه العامة، طالما حلمت منذ صغري بارتداء برنسهم الأحمر.

قطع عمار شرود ذهني وسفري للحظة إلى تلك الأزمنة بقوله مرّة ثانية :

-هذان سي مولاي وسي بوشريط، واثنان آخران لم أعد أذكرهما يا سليمان. ألقيت التحية وأنا أحدق في مولاي؛ كان شابّا ممتلئ البنية، فاره القامة، أسود الشعر حاد النظرات، تتطاير شظايا من بركان يغلي بداخله، تبدو واضحة من عينيه المتوهجتين وشاربه الطافح رجولة. كان الاجتماع يبحث عن طريقة لبدء العمليات في المنطقة، غير أن إلقاء القبض على أحد الرجال الذي كان قائدهم

غيّر هدف اللقاء. هذا المكان يعلمون أنه تعرض للخيانة، ويحاولون معرفة من الذي وشى به. عليك أحيانا أن تحصّن ظهرك حتى لا تُطعن في الجهتين، القائد محمد وشى به أحد من أبناء جلدته.

افتتح مولاي الاجتماع:

لقد تم إلقاء القبض على محمد منذ شهرين، وها نحن نجتمع لأول مرّة من دونه. علينا أن نختار من بيننا من يعوّضه، هناك خونة في الوطن نحميهم بصدورنا فيطعوننا من الخلف، ربّما ستصعب علينا الحركة في قادم الأيام وإن استسلم القائد محمد لطائلة التعذيب سيصطادوننا واحدا تلو الآخر، لذلك أقترح أن يتولى سي بوشريط القيادة .

احمر وجه بوشريط وتجمّد في مكانه لاقتراح مولاي، وأحس بثقل المسؤولية وضغطها على كيانه كله، إلا أنه كان مجبرا على الاستعداد للأمر.

همست في أذن عمّار:

- هل أصبح قائدا دون أن يتدرّب على ذلك؟

هم هكذا، يولدون قادة وأبطالا ويتأقلمون مع الوضع وكأنّ القدر هو الذي أنجبهم للتصدي.

تقدم القائد الجديد إلى وسط الحلقة:

"هذه وصية سي محمد بشأن أحد أقاربه، يؤكد ضرورة تصفيته، وذكر أسماء أخرى كانت مرجّحة لأن تميل إلى خدمة العسكر على حساب أهلنا في الوطن.

-تعرف يا سليمان أنهم كانوا يتحدثون بلغة الموت والحرية، ولا يكترثون بنصيبهم من الاثنين.

بعد أن غادرنا جبل بونقطة، همس مولاي لعمّار عند مخرج المغارة أنه سيزوره ليلا في بيته.

كانت الشوارع عندما عدنا إلى المدينة منتصفَ النهار مكتظة بالمارّة غير الآبهين بعربات عسكر الفرنسيين المتجهة غربا وشرقا، ليطوقوا المدينة مدة طويلة، ثم يعودوا بعد ذلك إلى الثكنات.

لحظة وصولنا إلى البيت مرورا بالشارع الممتد وسط المدينة دخلنا البيت بعدما ربطنا الأحصنة داخل الإصطبل وغفونا حتى المساء.

لبست المدينة ظلاما آخر في وقت مبكر مثلما تعودنا، فالشتاءات قصيرة النهارات طويلة الظلمات. استسلمت المدينة لهدوء مخيف طوّق الشوارع وكمّمها من أفواه المارة، تاركا أصوات العربات الفرنسية وجندها تغزو هدوء المكان. وقفت في باحة البيت محاولا تصوّر ما يجري خارجا. أحسست لأول مرة بالخوف يتجول في شوارع المدينة، على الأقل قريتي كانت مظلمة أيضا، لكنّها غير

مخيفة بهذا الشكل وإلى هذا الحدّ. بينما كنت أحاول معرفة ما يجري خارجا، سمعت وشوشة قريبة منّي، تسلل الفزع من باب البيت، بدا الصوت من الخارج ، ثم انتبهت إلى أنه من الداخل، عاد الصوت مجدّدا وارتفعت معه دقات قلبي، اقتربت منه، لم أستطع تمييز الحركة إن كانت لأحدهم أو شيء ما، دنوت إلى الجهة الشمالية من الباحة حتى فرّ ذلك الطائر اللعين؛ كانت حمامة يبدو أنها تبحث عن مكان دافئ، لأنه لا سلام في الخارج. ربما كانت تلك إشارة إلى أن حمام قريتنا قد يكون اشتاق لأن أطعمه عند الوادي كما كنت أفعل، هنا تفر الحمامات من أمكنة الخوف بحثا عن السلام، ويحلم بصناعته آخرون في الخارج بالجبال والوديان والشعاب والمخاوف.

قرع الباب بدقات خفيفة على ثلاث مرات متتالية، ساد سكون رهيب وأحسست بدقات قلبي تنبض في أذني، نهض عمار البريكي من مكانه، وألقى بنظرة من ثقب المفتاح.

فتح الباب ورحب قائلا:

-اتفضل مولاي.

حيّانا قائلا: كي مسيتو أجماعة؟

تقدم إلى الغرفة كأنه كان يعرفها كما يعرف بيته، مرتديا جلابية ذكرتني بجلابية أبي، كنت أخبئ تحتها الرشاش وأسافر لمسافات

طويلة دون أن يكتشف أمري، أدركت ذات مرة أن البرنوس بكل شهامته وقيمته بين الناس، لم يكن ليفعل ذلك حتى ولو كان بلون الذهب، لأنه كان مكشوفا، أما هي فكأنها خلقت للجبال والسلاح والدفء، يومها أدركت أن حلم الصبا في الحصول على برنوس أحمر لم يكن سوى عشق للون اقترن بأشخاص مقدسين سلمناهم آمالنا وأفئدتنا، أدركت عجزهم عندما عرفت جلابية أبي على ما تحتويه من شهامة رغم أنوثتها.

يحتضن مولاي إبراهيم جلابيته من الداخل، يلف تحتها شيئا بذراعيه، كان يبدو لي رشاشه، تأكدت من ذلك بعدما وضعه بجانب عمار وجلس بجانب الموقد.

أحضر عمار كوب القهوة لمولاي غير أنه أصر على الماء أولا فكان له ذلك، كان يبدو خارجا من اشتباك عنيف، أو فارا من أحدهم. استرجع أنفاسه رويدا رويدا ثم قال له عمار:

هل يطاردونك يا مولاي؟

لا، ولكن كاد أمري أن يكتشف، المهم، حققت أحد أهداف اجتماع الصباح، قضيت على الكلب، صفيت الحركي .

من تقصد ؟

الحركي تاع العربي، ابن عمّ محمد الذي وشى به، لم يُبدِ أي مقاومة ولم أتح له أي فرصة؛ لقد ترصدته حينما كان عائدا من

دورية رفقة الجنود، أحضروه بأنفسهم إلى بيته فقد كان محتاطا على ما يبدو، عندما سارت العربة واختفت في الشارع بقي واقفا. وددت التصويب عليه خارج البيت عند الباب حتى أتجنب اقتحام البيت وتصفيته أمام أهله، هذا ما حدث: جزاء الحركي هو أن موت ميتة كلب. كانت تلك أول ليلة أخاطب فيها مول الموسطاش مولاي براهيميا سليمان، سألته عمّا كان ذنب العربي فقال:

قبل شهرين من الآن طلب منا القائد محمد التحضير لاجتماع في الجبل، واختار اليوم المصادف لأحد الوعدات بالجوار في "لبيَض سيدي الشيخ" حتى ينصب تفكير الحاكم العام الفرنسي للمدينة على هذا التجمع، وهذا ما يسهل علينا الاجتماع، فعلنا ذلك، كان القائد محمد يهدف إلى إيجاد طريقة للاتصال بالقيادة بغية بدء الثورة هنا وإعلانها. القائد محمد شديد الحرص على رصد تحركات العدو، وكان يساعده في ذلك جندي مالي في صفوف الفرنسيين يخبره دائما إذا كانوا يريدون القبض عليه.

كل ما قام به المالي طيلة عام أفسده العربي، وشى به عندما زار والدته التي لم يرها منذ ثلاثة أشهر قضاها في جبال الصحراء. غريب أمر هؤلاء الناس يا أخي يعتمدون الوشاية بالناس. عجزوا عن العيش بكرم فقرروا مواصلة التعنت داخل حلقة الذل، حتى لا تزداد الهوة بينهم وبين الآخرين مثل القايد محمد.

على كل، لقد لقي حتفه، وسيكون عبرة لمن يود أن يسير على خطه. حدثنا مولاي في تلك الليلة عن الصعوبات التي لقيها والمعاناة التي عاشها بين وديان البيض وكثبان الصحراء في تجميع الأسلحة، عندما أوكلت له هذه المهمة منذ أربع سنوات وبالضبط سنتين قبل الثورة بين بشار وعين الصفراء. كان شغوفا بها، ينتظرها على أحرّ من الجمر غير أن القيادة كانت لها رؤية أخرى حسب ما ذكر.

اندهشت يا سليمان لهذا الرجل، أحسست بنفسي طفلا أمامه، رغم تقاربنا في السن، ربما الاختلاف في الأوساط هو الذي يحدد الاختلاف بين الرجال، الألم والكبرياء يكونان الرجال، أما الخوف وهيمنة الآخرين على نفوسنا فتصنع منّا أطفالا في أجساد رجال، هذيك اللي كان يقولها جدي الله يرحمو:

" اللي غاب كبيرو غاب تدبيرو" كلمة لا تصلح مع من اعتبروا وجود الفرنسيين على أرضنا قدرا من الله. كنت أصرّ على جدي قائلا:

-ليسوا كبارا، إنهم مثلنا كبّرهم البرنوس الأحمر فقط، كان يدير رأسه ويطلب مني الاستغفار. دهشت يا سليمان لشاب بمثل عمري طاف الصحراء فأصبح الليل والنهار والموت والحياة عنده سواء، بدأ في تصفية الجبناء الخونة من بني جلدته وأبناء حيه قبل مواجهة عدوه، قال لي"الطعنة التي تأتيك من الخلف يكون صاحبها خلفك،

وكنت تعلم بوجوده لأنك اعتقدت أنك تحمي به ظهرك، لذلك يكون دافعك الانتقام للثقة المغدور بها وليس ردّا للطعنة نفسها، أما عدوك فلا تخفه، ستجده أمامك طالما أنك تبحث عنه بنفسك.

غادر الموسطاش مولاي براهيم في منتصف تلك الليلة مخلفا في نفسي رائحة من الحرب، بدا لي الموت للحظة أنه سفر قصير من حياة مليئة بالقيود إلى ضفة أخرى بها أناس ينعمون بالحرية وينامون هنالك سعداء. بدا سليمان مصدوما وتائها وسط نفسه لما كان يسمعه مني لأول مرة، عن الثورة والاستعدادات والكمائن وما يفعله القادة، وكيف تبيت الرجال في الجبال، وكأن كبرياءه ارتج بداخله مثل طفل صغير بدأ في الوقوف يحاول مدّ أولى خطواته، نظرت إليه فلاحظت احمرار وجهه الناتج عن الضغط الذي كان يعتصره من الداخل. تردّدت في أن أسأله، ثم فعلت:

أهو فضول أم حماس يا سليمان؟

بل هي الصحوة يا لعرج، أرغب في أن أكون موسطاش القرية، أود اصطيادهم واحدا واحدا ولن يمنعني أحد فعل ذلك.

-تريّث فالوقت غير مناسب، أصبحت أعدادهم كثيرة هذه الأيام وستلحق بنفسك وبالقرية الأذى، سيأتي يوم ربما ينتصر لنا وينتقم من باقي السنين.

تعلم أنني ما كنت لأعود حيا إلى القرية، أو ليطلق سراحي لو أمسكوا معي الرسالة، ورغم هذا قضيت قرابة عام داخل السجن.

لم يكن سليمان يود المغادرة، يود المكوث أطول من أي وقت مضى، تغير الرجل وأصبح أكثر حيوية من ذي قبل، فهو لم يشعر بالنعاس مبكرا هذه الليلة، غادر نحو بيته متأخرا وتركني لمخاوفي التي تعكر ليلتي كغيمة تأبى التبدّد لا ينفع معها إلا المشي في البراح، فلعلّ ظلام القرية أهون من سواد الذاكرة.

الجزء الخامس

مسافرة وكئيبة ألبس بعضا من أحزان هذا الصباح، ما زلت أذكر كيف خلفنا بيتنا أسيرا لجدرانه الحزينة؛ خلفت ورائي ابتسامة زهرة المعلقة بين زواياه في الأمكنة التي خاطت فيها فساتينها بأصابعها الرقيقة مثل عيدان الجليد الصغيرة التي تتشبث بأسقف القرميد، تركت ورائي أحلامي الهلامية وكوابيسي البيضاء، وتربة سقتها "أُمّا يامنة" هذا الصباح من عينيها، الجروح مثل الملح كلما مرّ عليها الزمن، اتضح أثرها أكثر وزاد عطشنا .

تسير العربات والأحصنة في الطريق بين الجبال والوديان، ماضية بنا إلى حيث ستستقر أختي الوحيدة، لا تعرف ما خلفت وراءها، وما الذي رافقها يوم عرسها هذا، ابتسامة الفساتين أم جرح ارتسم في باحة البيت.

وصلنا إلى القرية التي بها بيت العرس، كان أهل العريس هناك في انتظارنا. عند وصولنا لاحظت أن المكان يشبه قريتنا: البيوت والخيام وأطفال صغار يركضون في كل الأرجاء، كان في استقبالها رجال يحملون بنادق، لم أر بندقية في قريتي منذ زمن، البعض أخفاه رجال القرية، والباقي أخذه الفرنسيون، فكيف سمحوا لهؤلاء بالاحتفاظ بها ! اقترب بعض الرجال من هودج زهرة بطلقات

بارود كانت تدوّي المكان، حتى أنهم لا يسمعون بعضهم أثناء صيحاتهم.

شدني صاحب الموال بآهاته الطويلة، تتبعها إلى عتبة الباب حيث كان زوجها في استقبالها بجسده الضخم الممتلئ الذي غطي باب البيت، بعباءة بيضاء وسروال عريض، كانت المرة الأولى التي نراه فيها، هكذا هو قانون القبيلة عندنا؛ تتعرف المرأة على زوجها ليلة الزفاف.

كانت النسوة في الداخل يتزاحمن على رؤية ضيفتهن الدائمة يختلسن النظر، وبوتوتات خفيفة يهمسن لبعضهن، القصيرات منهن يقفن على أصابع أقدامهن لاستراق بعض من ملامح العروس، يحدث هذا في دار الأضياف التي يتراءى لي منها زوج زهرة في الخارج يبتسم في خشونته مثل فيل جائع، الطاعة حسب طرق الأجداد تكون من أول يوم بالانحناء عند الباب، أعرف حس زهرة ورقتها؛ فهي لا تحتاج إلى كلّ هذا الانحناء.

سمعت أبي يخبر أمي ذات صباح أنه ذو مكانة رفيعة فهو إبن القايد , كان فارسا يروض أعنف الأحصنة . ترويض القلوب قد يكون أصعب من ترويض الجياد، فزرع الطمأنينة قد يعجل بالحبّ، أما القوة فقد تكسر الخواطر وتقتل الاثنين معا.

انصرف الفيل من باحة البيت ضاحكا مثل طفل كبير يجر برنسه الذي وضعه أحدهم على كتفيه. درت ببصري إلى زهرة أسترق شيئا من وجهها الدائري الجميل، أدرك أن شوقي لها بدأ منذ أن قرّروا رحيلها عنا، تراءى لي وجهها وبدا شاحبا أبيض قد امتزجت فيه الدهشة بالخوف. لم أرها بهذا الشكل إلا مرة منذ سنتين.

أعاد لي وجهها اليوم صورة ناصر المسكين الذي أحبّها أكثر من نفسه. كان يغزو طيفه الذاكرة والمكان بين حين وآخر، كيف لا، وقد حمل كل ابتساماتها في عينيه ووشاحه الذي خاطته له؟ كيف لا يقفز طيفه من الماضي إلى هنا وهو يشيّع مرة أخرى، كان يتردّد على أبي خاطبا إياها للمرة التاسعة، غير أنّ الوالد كان يصرّ عليه في كل مرة قائلا له: إن هذا الزواج لن يتمّ إلا بعد أن تصير أكبر قليلا، وينتهي هو من الخدمة العسكرية التي رفضها وفرّ منها كثيرون ولم يعودوا إلى القرية حتى الآن.

لم تكن فرحته بحمل السلاح مع الفرنسيين ناجمة عن حبّه للعسكر بقدر ما يهمّه إرضاء أبي؛ فقد نرضخ أحيانا للتنازل عن الكرامة لنغنم هلوسات القلب. هكذا كان ناصر.

التحق بالثكنة سعيدا مبتهجا بعدما ودّعها عند باب البيت، وبعد ثلاثة أيام عاد صامتا منكسرا، ذهب يحمل آماله ويتحمل

حرقة انتظارها، فعاد منطفئا يحمل دموعها في نعشه. أحضروا جثته في ذلك اليوم ووضعوها في ساحة القرية المطلة على المسجد، رموه بالرصاص بعدما حاول ردّ الإهانة إلى أحد الضباط داخل الثكنة، هكذا قال القايد الذي أحضر جثته:

-أحضرنا الجثة ولم نحرقها حتى لا يفكّر أي شخص آخر في ارتكاب حماقة مثل هذا التافه...

أي تفاهة يا ناصر أن نموت في سبيل من نحبّ، أي تفاهة جعلت بها زهرة تصير سجينة بكلمتين:"نحبك أقلبي"

طلبت منّا والدة العريس الانتقال إلى البيت المجاور في الليل تاركين زهرة مع زوجها، لا أدري لم كنت خائفة في مكانها، شعرت أنّ هناك تناقضا صارخا بين زهرة الرقيقة والفيل الذي لمحته آخر مرة في باحة البيت، النسوة يتجاذبن أطراف الحديث بعدما فرغن من العشاء، "امّايامنة" وسطهن تبدو سعيدة محمرّة الوجه لما بدت عليه زهرة من جمال، تكون تناست أحزان الصباح، يلقين بسهام نظراتهم نحوي، كأنهن يتحدثن عنّي، وأغلب الظن يتودّدن لأمي على أن أكون كنة إحداهن، النساء يُشترين ويُبعن في هذه الولائم مثل السلع، وتحدّد الجودة من حجم الأثداء والأرداف. جسم يقوى على قسوة الحياة ورجولة الأزواج، على حمل الحطب وأعمال الرجال في زمن الحرب والجوع.

انصرفت النسوة وغادرن بيت العرس، وتوجهت بعضهن إلى دار الأضياف، كما طلب منا، لم يبدُ لي البيت موحشا طالما اعتدت على الأشياء الغريبة في هذا اليوم، استلقيت في الفراش، وانطويت إلى نفسي والتففت ببعض الأشواق التي لاحت جناحيها مثل طائر يأوى إلى عشه، لا أدري لم كلّ مخاوفي من الليل.

تمنيت ألا يبزغ الفجر مخافة من الغد. أحسست أن هذا الليل مختلف عن سابقيه.

في الصباح الباكر أفقت متأخرة بعض الشيء، أحسست بدوار بسيط. كان البيت خاليا ممن قضوا الليل فيه بجانبي، التقطت مسامعي بعض الصيحات التي لم أدركها في الأول غير أن صوت البكاء كان واضحا هذه المرة، ارتديت شالي الطويل وغطّيت به كل رأسي، وخرجت مسرعة إلى البيت الذي تركت به أختي، تمتمات وهمس داخل الباحة بين بعض النسوة، وصوت لأحدهم كان يرتل قرآنا ينبعث صوته من داخل البيت، تزاحم كلّ شيء داخل رأسي، صرت وراء أمّي تمامًا التي كانت في طريقها إلى البيت، ويبدو أنها غادرت قبلي بلحظة. دخلنا إلى غرفتها حيث كان الجميع هناك. والدي ووالدا العريس وشيخ تأكدت من أنه هو القارئ، تفحصت أرجاء الغرفة فبدت لي واسعة وطينها أسود، كانت زهرة ممدّدة على الفراش لا تتكلم ولا تتحرّك، تجمّدت في مكاني، حاولت لفت

انتباهها ممرّرة يدي بين عينيها، غير أنّها لم تتجاوب معي، زهرة لم تعد كما كانت؛ ضاع نسيمها، تمزّقت روحها كما تمزّقت ثيابها عن جسدها، داستها حوافر الفيل، اخترق نعومتها دون أن يراعي رقة عمر ادخرتها لناصر، فكسر جليدها الرقيق. أحسست أن الغرفة لا تختلف عن أي إصطبل؛ عاث الخراب داخل ضفائرها الجميلة. أصبحت لا تفرق بين الحلم والحقيقة، وبالكاد تتنفس، صارت بقايا أنثى، حتى بعد مرور يومين ما تزال باهتة متجمدة وشاحبة كالأموات.

عندما حاولوا مساعدتها على الوقوف في الصباح الثالث بعد فراغ الشيخ من الرقية سقطت أرضا وكان الشيخ يجزم في كل مرة أن الجنيّ لم يخرج، وربما لن يفعل حتى يأخذ روحها، حينها خرجت "مّا يامنة" من البيت لتكمل صرختها التي كتمتها منذ ثلاثة أيام "يااااااااا زهرة يا بنتي سامحيني"

لم أعر اهتماما لقول الشيخ بأنّ بعضا من العرائس تختطفهن الجنّ في ليلتهن الأولى، هذا الاختطاف حصل عندما بكت ناصرا في القرية، وعارضوا فكرة تزويجها منه؛ لأنه ما زال يافعا. واصلوا رفضهم ومنعوها الخروج حتى لا تسترق منه نظرة عبر الزقاق، إلى أن جاء اليوم الذي بلّلت فيه وجهه بدموعها، ونصب ضريحه في عينيها مثل جرح دائم. طالما كانت مجنونة القرية في السنة التي تلت

استشهاده، عندما لا نجدها صباحا في البيت يذهب أبي لإحضارها من المقبرة، فتعود بقبضة من التراب تأخذها من قبره، تكبّلها أمي من ذراعيها وساقيها حتى لا تلوذ بالفرار إليه مرّة أخرى، كانت تعلق عليها قطعا صغيرة من الورق مغلفة من الجلود، كما كانت تفعل معي وأنا أنتظر لعرج، كانت تهدأ بعد ذلك ولا أدري إن كانت التمائم هي التي تفعل ذلك، أم التعب من الركض بين البيت والمقبرة التي كانت خلف الواد. القطع الصغيرة لم تعد لـ"لعرج" وإنما أتتني بسرجه الملطخ بالدماء، فكيف أتت لزهرة بهذا الحظ التعيس. بقيت على هذه الحالة حتى مرّ أسبوع من الصدمة، وقيل إنه في اليوم السابع تتمّ طقوس شفائها، هكذا توغّلت كلمات الشيخ في أذني وهو يخبر أبي أنّ طرد الجنيّ قد يتطلّب سبعة أيام إن لزم الأمر اكتمل اليوم السابع وعجز الشيخ عن علاجها بعدما جرب فيها كل الطقوس. بكت أمي أيضا وكنت أرى الصرخة حبيسة شفتيها وزهرة تلبس الصمت وتكتسي عيناها ببياض الأموات، لقد صار الموت خلاصا، ما أجمله إن كان مريحا جامعا للأحبة.

كنت أريد لها أن ترحل رغم حبي الكبير إياها إن كانت ستلتقي بناصر، أبكي خلسة عن "أما يامنة" مردّدة في قلبي "صعب أن تتركيني يا زهرة".

- اااه يا سليمان أنا اختك... أخبرني أرجوك، كيف لك أن انتصرت، ولم يغنمك الموت في حزنك، أم أن قلوب الرجال أقسى عند الوداع، كيف لك أن انتصرت عليه كيف ؟

فقدت زوجتك وولديك التوأم في يوم واحد، بعد مخاضها الطويل رحلت تلك الفتاة **حبيبة** ولم تترك وراءها ثمرتك التي زرعتها في بطنها في إحدى ليالي الربيع المخيفة المحشوة بأصوات المدافع والطائرات. قال لي لعرج ليلتها إنكَ لا تسمع ولا ترى شيئا إلا سياط أنفاسها تجلدك في الظلام، ما زلت أذكر كيف قصفت القرية بأوجاعها وصراخها من أعلى التلة يوم كانت تلد، وكيف عاش معها كل سكان القرية المخاض من شروق اليوم حتى غروبه. فارقتك **حبيبة** ومات الطفلان أيضا، وما زلت شامخا يا سليمان. الانكسار عندنا نحن النساء هو حين نشتاق ونودع ولو حتى في لحظة فرح، فكيف لك أن سطوت على النسيان وحدك وتركت لنا كل الذكرى؟

الصمت يطوّق المكان، يجمع فيه آلامنا ويختصرها في نواح مايامنة، قال الشيخ الذي عجز عن إعادة الكلام لزهرة إن الأمر قد صار يتجاوزه وإن أيام "الوعدة" ستبدأ بعد يومين، وستشهد حضورا كبيرا لبعض المشايخ مثل كل سنة، هناك من يقدر على شفائها. المكان مقدس وهناك يمنحون بركاتهم بكل حبّ في هذه الأيام، إن أخفق أحدهم سينجح آخر بلا شك، أملها هناك كبير.

سنسافر إلى تلك القرية من جديد؟

أكاد أجزم أنها هي، لأنها الوحيدة التي تقيم طقوسها في هذا الفصل، كم أكره ذلك المكان المخيف فكيف يأخذونها هناك؟

رغم قداسته لدى الناس، تخيفني شساعته واصفرار سمائه وغباره الأحمر مثل غيمة من الشمس تلف المكان، تخيفني أصوات الزائرين هناك والتراتيل المنبعثة من ساحة القرية للشيوخ الجالسين في ساحة الوعدة، يرتلون بصوت واحد، يخفضون أصواتهم حين يريدون ويرفعونها فجأة حين يريدون ذلك، كأنهم يتلقون همسا أو وحيا من الشيخ الذي يجلس وسط الحلقة.

استحضرت كل شيء في لحظة عابرة حطت رحالها بسماعي تلك الكلمة: الوعدة، كنت صغيرة لمّا زرتها آخر مرة رفقة والدي وما أزال أحتفظ بتلك الصور في ذاكرتي، لا أدري كيف تقترن كلمة بلحظات الماضي وكل صورها فنستحضرها ونحياها من جديد دون أن نشعر، وأحيانا ترفض تلك اللحظات العودة رغم إصرارنا عليها بكل الكلمات، ربّما الحب والخوف يترسخان فينا، بينما تذوب بقية المشاعر بمرور اللحظة.

كان عمري ثماني سنوات وقتها، لم يبق شيء في ذهني عن تلك الطقوس سوى الغبار والعطش الشديد وكيف كنت أصرّ على والدي في كلّ مرّة أن يأخذني إلى الوادي كي أشرب الماء وأغسل

وجهي من غبار الساحة. كنت أسأله كل مرة بعدما أفرغ من الشرب عن سبب وجود النسوة في الوادي، ولماذا يشمّرن عن سيقانهن إلى الركبة ويقطعن الوادي إلى الضفة الأخرى؟ لم يكن يجيب على أسئلتي بل يكتفي بكلمة "تكبري وتفهمي يا ذهيبة".

خرج أبي يبحث عن طريقة ما كي نسافر إلى قرية سيدي الناصر، فلم يجد عربة بإمكانها أن تقل شخصا مريضا يحتاج إلى الاستلقاء طوال طريق السفر المقدرة بحوالي ساعتين، ارتأى والد العريس الذي كان على علاقة ببعض العسكر، خصوصا وأن ابنه زوج زهرة يشتغل عندهم على توفير عربة وحصانين، في حين أراد القايد والد العريس زيارة الوعدة أيضا، لأنه كان يشعر بالحاجة إلى القيام بذلك.

سافرنا إلى قرية سيدي الناصر رفقة أحد المارة إلى هناك على متن قوافلهم، خصصت العربة لأختي و"أما يامنة"، في حين امتطيت أحد الأحصنة كما فعل والدي، وانطلقنا باتجاه الغرب، الأرض خالية مقفرة ، تبدومن شساعتها أنها تتسع لجميع من في هذا العالم، تسير الخيول والجمال تباعا نحو الوجهة المحددة، بعد سير ساعتين من الزمن تراءت لنا القرية وصاح واحد ممّن كانوا على متن القافلة: أراها قريبة يا جماعة.

بمجرّد أن صرنا على مشارف القرية عادت صور الطفولة إلىذهني مرتبة بكل تفاصيلها الصغيرة وكأنني عشتها البارحة، أحسست بكل تلك الروائح تنبعث من المكان رغم أنه لا زال بعيدا. لا أدري إن كان عطرها يصلني، أم أنها تفوح من الذكرى . بعض الأماكن وبعض الناس لهم روائح معيّنة فينا، إذا ما عاد عطرها تحدّدت الأزمنة.

تأكدت من أننا وصلنا إلى القرية "المقدّسة" بعدما تراءت لي القبة الخضراء.

آه... القبة الخضراء... هنا ينام الرجل الصالح سيدي الناصر الذي يمنح بركاته الأحياء، ويلملم جراحهم ويحمل عنهم بعضا من الألم والأنين. لم تتغير الساحة رغم تغير وجوه الزائرين، القبة أصبحت أقل حجما من ذي قبل كنت أراها شامخة في طفولتي. الناس يدخلون إلى القبة، كلّ يحمل انكساره بين شفتيه يقدمونه إلى سيدي كما تقول "أما يامنة"، في هذا المكان ندرك أن الألم لا يكبر ولا يشيخ، كما أنّه لا يموت أيضا، يسافر عبر الأزمنة ليحطّ رحاله في قلوب جديدة، تناهت إليّ أصواتهم وتمتماتهم من داخل القبة وآخرون ينتظرون دورهم للدخول . كلما دخل زائرجديد تكاثفت رائحة البخورفي الداخل.

عند باب القبة يقف شيخ أبيض اللحية تعلو رأسه عمامة سوداء مثل صنم من الحجارة، يحمل كيسا به قطع من النقود ميزتها من الرنين الذي تصدره بعد رمي الزوار فيه قبل دخولهم إليه، يدخلون إليه منحنين يائسين ثم يخرجون من عنده شامخين وقد مسحت حمرة على وجوههم أزالت عنهم بعضا من غبار ساحة الخيل.

خلف القبة تقف بعض النسوة أمام الحائط في صمت وخشوع. رأيت امرأة تلبس الأسود، عيناها مغرورقتان تمسح بيديها على الحائط من الخارج تتمتم في صمت، ترفع يديها نحو السماء ثم تهرع مهرولة نحو طفلها المستلقي بجانب المزار، وتمسح عنه بيديها بركات الجدار. فعلت ذلك على نحو متكرّر، وكأنها كانت تمسك بشيء مقدس تنتزعه من الجدار وتمسح به على رجلي طفلها الذي لم يكن قادرا على المشي. نسيت مرض شقيقتي زهرة لوهلة .

-الناس يسعون إلى السلام في هذه الأرض، مخلصين لمولى القبة، تعلمت من "أما يامنة" أن أسلم بهم قديما غير أنني عندما كبرت فهمت أن الميت لا يمكن له أن يسمعنا، كيف يعطينا الحياة وقد صار كومة من عظام تحت التراب .

أريد أن أبكي بشدة وأستسلم لنهر الدموع بداخلي، أجزم بأنه لن يجف؛ فكل دمعة تحمل جرحا، وبعض الجروح لا يمكن لها أن تختفي إلا إذا عاد إلينا أصحابها فكيف لها أن تندمل في هذا الكوخ؟

اه...أما يامنة ستغضب إن سمعتني.

لمحت المرأة وهي تنصرف رفقة زوجها حاملا طفله الذي لم يكن قادرا على المشي.

رحلوا ومعهم كيس صغير من تربة هذه الأرض المقدسة، "تربة سيدي الناصر" مثلما كانوا يتمتمون .

شدتني رائحة البخور والدخان المنبعث من داخل القبة، كل أحد الزائرين يشعل عودا عند دخوله، ويعلّق عليه أمانيه، يجلس في حضرة سيدي الناصر يمارس طقوسه في صمت، وهناك من كانوا يحدثونه من خلف ستار.

زهرة لا تقوى على شيء؛ فقدت الوقوف، وفقدت الحركة كلّ أطرافها اليسارية، حتّى عيناها الخضروان لم تعودا ترمشان معا، العين اليسرى صارت غريبة عن هذا الجسد الأبيض، لم تعودا تغردان كعصفورتين مثلما كانتا قبلُ.

ساعد المقدم - أو الشيخ الأبيض- والدي في حملها إلى داخل القبة، فشكره قائلا:

- ربي يحفظك آ سي المقدم..

عرفت اسمه من شكر والدي إياه، دخلت إلى القبة وانتابني نوع من الهلع بسبب الظلام. انكمشت إلى الجدار وقبضت على يد أمّي؛ إذ لم أكن أودّ الاقتراب من الضريح.

- أبي لا يبدو خائفا، أمي كذلك، بل همست في أذني ألا أكثر الحركة عسى أن يسمعونا.
- من يا أمي ؟
- -شششت، ونظرت إليّ نظرة زادتني رعبا فقد بدا لي وجهها أكثر سوادا من ذي قبل، واختلط مع ظلام الداخل والدخان داخل القبة فأصبحت بالكاد أرى وجهها.

رغم خوفي من المكان وكرهي للتمائم وأصوات الشيوخ حركات أمي من كانت تزرع في قلبي خوفا آخر ،جعلتني أقف مذعورة بين القبة والظلام كنت آخر من دخل إليها وأوّل راغب في الخروج .

الظلام يغزو المكان في كل مساحة على جدرانه، ما عدا تلك الخيوط الضوئية المتسللة من شقوق الجدران. تلامس دخان الشموع المعلّقة على الجدران، تلتحم مع خيوط الضوء، فتشكل إشعاعا يشبه النور الهارب من الخارج إلى هنا، ارتسم خيط النور من أرضية القبة إلى أعلى الجدار يشكل دوائر بيضاء، يخيل إليّ أنها تحوّلت إلى غيمة كبيرة، تختفي لتعود مجدّدا فأرى الدوائر تتراقص داخل حلقات الضوء، فتشكل من الدخان وجوها بشرية صغيرة

وأخرى كبيرة تدور وسط الدخان من أرضية القبة، وتخرج عبر شق الجدار. تكرّر الأمر عدة مرات، وانغمست شاردة بين فجوة الجدار والأرضية مترصدة الوجوه المسافرة عبر الدخان، كنت أحاول التدقيق مع ملامح أصحابها، كان بعضها يبدو مألوفا بالنسبة إلي، همست في أذن "أمّا يامنة" مشيرة بأصبعي نحو الدخان:

- أهذه وجوه من ماتوا ورحلوا عنا يا أماه ؟ يشبه لعرج ذلك الطيف يا أمي .
- يبدو أن المخلوق راه تعفن في كاش جبل.
- قولي الله يرحمو يا أُمّا.

لم تعقب على وساوسي وهلوساتي، بينما كانت تتضرّع .

اقترب أبي من المقام ورفع ستائر الحرير الخضراء والحمراء، خرجت غيمة هاربة من الدخان حجبت الرؤية، شيء أسود حلق باتجاه السقف يبدو طيفا أو كأنها قطعة قماش تلعب في فضاء القبة ثم تلتها صرختي التي دوّت في المكان.

-اسكتي، إنه طائر لا أكثر، همست لي وهي تحاول تكميم فمي بيدها . حام حولي وخرج من فتحة بالجدار.

-ماذا يفعلون هنا؟، كنت أود أن أرى حمام الغيشة داخل دخان القبة، سحقا إنها الخفافيش، ترقد رفقة الصالحين هنا، هل تؤنسه أم تأتنس به، الخفافيش لا تحمل السلام ولا الحرب هي

أمارة شؤم، فكيف لها أن تنام هنا؟ لماذا لم تطردها بركات المكان؟ رحت أكلّم أبي تارة، ونفسي تارة أخرى. تلمّس أبي الضريح، كان يحاول أن يتأكد من جهة الرأس، أطال قليلا البحث، وضع أختي بجانب الضريح وأعاد الستائر. هكذا صارت أختي زهرة في حضرة سيدي الناصر. عدت إلى البحث عن تلك الوجوه داخل ضوء القبة. ما كان يخيفني هو تلك الغيوم الصغيرة على شكل حيوانات ورؤية الحصان بداخلها، وعندما تأخذ أشكالا بشرية أبحث عن وجه لعرج داخلها فلا أجده .

تلك إشارة على أنه لم يمت؟

ربما يكون قد عاد إلى القرية أو ربّما صار عظاما في جبل ما.

الجزء السادس

مرت ستة أيام على عودته وسبعة أيام عن وجود ذهيبة وعائلتها بالقرية الأخرى، وها هي الآن تنتقل إلى قرية أخرى. لعرج أصبح أكثر ضجرا من البقاء فيها، لا يمكث في منزله كثيرا، يتجوّل في أماكن مجاورة، يعيش صراعا بين الرحيل إلى الغرب أو البقاء في الغيشة، تعافى جيدا من الكسر الذي تعرض له في السجن في إصبع قدمه اليمنى، وهو يستأنس بصديقه سليمان فقط. صوت اللحن كالعادة ... ردد لعرج وهو يضع أخر زاده فوق الحصان :

-إنه سليمان ربما لا أستطيع إخباره برغبتي في الرحيل، سيحاول منعي، وربما يفلح في ذلك. أصبح مرة أخرى تائها بين حب وحرب، مرّ أكثر من أسبوع منذ عودتي ولم تأت ذهيبة. دخل سليمان إلى بيت لعرج فوجده على استعداد للرحيل، زاد الرحيل معبأة على ظهر الحصان المسرج .لم يبق الا الامتطاء ...

هل ستغادرنا مرة أخرى؟ سأله سليمان بحزن.

- أتعلم؟ لم أعد أطيق المكوث هنا، أحس بأني صرت مخيّرا . مخير بين ماذا وماذا؟

بين الجبل والجهاد في سبيل هذه الأرض، وبين انتظارها هنا كجبان تحت رحمة هؤلاء العسكر.

- وفي هذا الليل الحالك؟

لقد اعتدته، صار لا يخيفني. قبل ستة أشهر وأثناء عودتي إلى القرية من الغرب، كنت أسلك الدروب وحيدا على مقربة من سيدي سليمان. التقيت بأحد العائدين من الرعي ... أومأ إليّ برأسه فرددت عليه التحية نفسها، بعدما اقتربت منه طلب مني أن أسلك الطريق الاجتنابي؛ فبعض الجنود يقومون بدورية، وهم أمام سيدي سليمان..عملت بنصيحة الرجل خوفا، خصوصا وأني كنت أحمل رشاشا. سلكت أحد المنحدرات التي تؤدي إلى الوادي حتى لا أقع في المحظور، وأنا أحمل دليل إعدامي معي. اختفيت بين الأشجار، وكنت أعلم أنني تخفيت تماما، ورغم هذا فقد كان لديّ إحساس أن مكروها ما سيصيبني. سمعت أحدهم يسحب زنادا لبندقيته...ترصدت الصوت لم أستطع تحديد مكانه، قفزت من على صهوة الحصان، سمعت الطلقات من خلفي. حدث كل شيء بسرعة، أحسست بها تخترق كتفي الأيسر، ماذا لو قفزت لجهة اليسار يا سليمان ... كنت ميتا الآن.

- أحيانا يكون النهار مخيفا أكثر من الليل، النهار يرينا جروحنا وأعداءنا، أما الليل فلا يفعل، لذلك سأغادر هذه المرّة ليلا.
- ما إن أنهى لعرج كلامه حتى ارتمى سليمان في حضنه باكيا مثل طفل صغير.

- اااه يا صاحبي ليس عليك أن تذهب في كلّ مرة .
- لا عليك، أعدك أنني سأعود، فقط اعتن بنفسك وكن حذرا، قل لها أيضا إنني سأعود... أو لا تفعل.

ردّد لعرج وكأنه ابتلع الكلمات أثناء رحيله وابتعاده عن باب البيت وعن سليمان، اختفى بين كومة من الظلام وخلف القرية وراءه صعودا الى الجبل.

لم يكن لعرج يعلم بأنه سيخلف صديقه إلى عالم جديد، أخرجه من صمته المعروف إلى فوضى بدأت تتآكل بداخله، خلفه لأحلام الليالي المليئة بالقتال، وكوابيس النهار، سليمان صديق الطفولة، ورفيق الدراسة من الجامع إلى البيت، شاهد على أحلام الطفل التي كبرت بين أزقة القرية.

أثناء اليوم الموالي وعند رحلته، توقف لعرج في قرية "تاويالة" ليستريح من العياء الذي حمله معه من القرية، هو لم يتماثل للشفاء بصفة كلية. تسلل وسط شوارعها، فهو يعرفها بكل تفاصيلها الليلية المخيفة، الفرنسيون يراودون هذه القرية أكثر من الغيشة، لعرج يعرفها مثل قريته تماما، تاويالة تكبرها بقليل، الوادي هنا يمرّ وسط القرية، يقابله من الجنوب قصر الأتراك.

تمتم قائلا بشفتين باردتين :

العثمانيون هم من بنوا هذا القصر الشاسع، يمتد من شرق القرية إلى غربها، ترى كيف سلموا القرية وكانوا يملكون قصرا بهذا الحجم؟ أي حرب جرت هنا حتى سيطر عليه الفرنسيون، أم أن العثمانيين هجروه مع سقوط المحروسة وسقوط قسنطينة، أيّ ظرف جعلهم يأتون من وراء البحار ليشيّدوه ويرحلوا ويتركوه، أي قوة أجبرتهم على ذلك. قصر بدأ براية السلام وانتهى بطبول الحرب كما يبدو. خطا لعرج إلى الخلف، استدار وقصد كوخا مهجورا لا يبعد عن الوادي كثيرا، ربط حصانه إلى شجرة عند مدخله واستلقى داخله مثل خارج من معركة كانت تدور برأسه داخل القصر.

قصور كأنها بنيت لأجلهم، حتى قصر كوردان في عين ماضي طالما أبديت استغرابي حول تسميته، استفسرت من أحد الشيوخ في عين ماضي أيام الزاوية بينما كنا نتجول مساء بالقرب منه.

أذكر أنه كان متحفظا عندما سألته:

-ألا يبدو الاسم غير مألوف يا سيدي؟

سكت الشيخ حينها قليلا ثمّ أردف ببرودة تشبه طقس هذه الليلة:

-الأسماء لا تهم يا بني، إنها مشيئة سيدي أحمد عمار التيجاني في أن يكون القصر بهذا الاسم. واكتفى بهذا الجواب.

كوردان...ظل هذا الاسم ملتصقا بذاكرتي مثل طيف يتبع صاحبه يحفر في داخلي سؤالا حادا يقتلع إجابات لم تكن موجودة في هذا الفراغ الشاسع . كنا نقف في ساحة القصر من الخارج يقابلنا الباب الخشبي العملاق لمدخل القصر، تتراءى لنا نوافذ الغرف الكثيرة كلّها مطلة على شرفته الطويلة الممتدة على طول الطابق العلوي، كنت أنظر إليها برأس متدلية نحو الخلف كمن تلقى لكمة من الأمام، ألوان من النور تطل من كل النوافذ كانت تلتحم بألوان الستائر فشكلت إشعاعات هادئة تعطي السكينة وتؤثث لهدوء بدا لي صوته من الداخل.

- ضوء بالقصر يا سيدي .

مازال الناس يحبونه، يزورونه كل مساء يشعلون به شموعا حتى لا يقضي الليل منطفئا . لاحت خيوط الفجر وأنا والشيخ مازلنا بالخارج . سمعت صوت الهدوء لأول مرة يطل من شرفة القصر. لم يعد يتراءى لي ضوؤها المتراقص، أطلت التحديق فيه، رغبت في دخوله أكثر من أي مرة سابقة، الشيخ بجانبي لم أسمع بما كانت تنطق شفتاه من تمتمات، على الأرجح كان يقرأ الفضول في عيني. أومأ إليّ برأسه أن أتبعه قائلا:

- نمشي.

- أين سيدي ؟ يا سيدي من بنى في هذا القصر؟ هل هو من ذكرته لي قبل قليل؟
- الخليفة العام للطريقة سيدي أحمد التيجاني يرقد الآن في ساحة القصر بمقبرة العائلة، توفي منذ قرابة قرن، هيا. اتبعني حتى لا تفوتك الصلاة .
- أي صلاة يا سيدي؟ فالظهر ما يزال بعيدا.
- هذه صلاة الفاتح، إنها صلاة أخرى يا بني فريدة من نوعها .

سرنا إلى الزاوية، سبقني هو وتبعته أنا برأس معكوسة إلى الخلف، أدقق في القصر كأني وددت معرفة عدد نوافذه، عدلت عما أريد عندما تعثرت بحجر أرداني أرضا، وصلنا بعد مدة إلى ساحة الزاوية التي لم تكن تبعد كثيرا عن القصر، وقفت إلى جانب النافورة التي تتوسط الساحة، توضأت كما طلب مني ثم صعدنا إلى الطابق العلوي، دخلنا غرفة شاسعة، هي أقرب إلى صالة منها إلى غرفة، تبدو مخصصة للاجتماعات الكبيرة، المشايخ بدأت في ارتياد المكان، فرشت على الأرض بعض الزرابي الملونة، يسهر بعض الطلبة الجدد على فعل ذلك، يقومون بتهيئة المكان.

حاولت مساعدة أحد الطلبة في حمل الأفرشة، إلا أنه رفض بنظرة عابسة قائلا:

-كل واحد يساعد نفسه،

اتجهت صوب المخزن الذي كان خارج الصالة، حملت ما يمكن حمله من أفرشة، وطرحته على الأرض قبل أن يبدأ الشيوخ في الجلوس على شكل حلقة تاركين فراغا بينهم. وضعوا فراشا أبيض في الوسط، كست رائحة البخور المكان واشتعلت عيدانه المعلقة في جدران الغرفة، امتزجت برائحة المسك المرشوش على عباءاتهم فشكلت عبقا قويا، ورائحة كرائحة الجنة كانت تنبعث من المكان، البعض منهم كان يرتدي برنسا أحمر فوق عباءته. لم يبد لي اللون غريبا عندما رأيته، إنه يشبه برنوس الإمام في قريتنا، رأيته يرتديه في الغيشة، كما وددت امتلاك واحد مثله، تمعنت في الجالسين هنا فكلهم يتشابهون.

حصلت على إجابة لسؤالي بعد مرور زمن طويل من طرحه. أحيانا يتكفل الزمن بالإجابة بدل الأشخاص الذين يقفون عاجزين، ليس لأنهم لا يمتلكون إجابة، بل لأن الزمن قد يختصرها في صورة تكون كفيلة بذلك، نعم لقد عثرت على إجابة لسؤال طرحته على أبي عندما جاء بالإمام إلى البيت ليقوم برقية أمي التي كانت تحتضر.

- انظر يا أبي إنه مثل برنوسك، لكنه أحمر، هل هو من القرية ؟
- اخرج عليّ يا وحد الحمار، هات إناء الماء قبل أن تغادر.

قال أبي بصوت مرتفع، بعد أن همس الإمام الأحمر في أذنه وانصرف لشأنه، قربت الماء من أبي كان يضع أمي في حجره، أخذ يبلل ريقها بقطرات من الماء، كان وجهها أصفر مثل شمس صباحية هادئة تطلق نورها في أرجاء المنزل، شعرها صار قصيرا مقارنة بالأيام الماضية، وجهها المدور وخداها الممتلئان غابت عن هذه المرأة المستلقية هنا، كل شيء جميل غادرها، يبدو أنها كانت تستعد للرحيل لمطاردة ابتسامتها المشتعلة، هي لا تود أن تنطفئ هنا، كانت في لحظاتها الأخيرة ولم أعرف أنها تودّع الدنيا، أبي يعيش معها آخر ما تبقى، يسقيها ماء من الإناء ويغسل وجهها بملح عينيه، أحسست بما كان يحسه. للحظة اجتاحني ألمه، اعتقدت دائما أنني أستطيع أن أكون أبي، ولكن لم أقدر، أسمع أنينه في قطراته التي تتهاوى من عينيه على وجه أمي الأصفر. هل أنا الوحيد الذي كان يعلم ما يدور في قلب أبي، أم إنّ في كل طفل قطعة من أبيه تجتمع فيها أحاسيس الأبوة الناعمة؟

أعاد اللون الأحمر إلى ذاكرتي جزءا من الألم الذي ظل محفورا عبر طفولة تائهة بين القرية والزاوية، عاد اللون هنا في هذه الصالة، وأعاد معه كل تفاصيل القرية التعيسة، عثرت معه على إجابة كان ثمنها أشد آلام الماضي حرقة. نعم..من هنا قدم إمام قريتنا أو ربما حصل على برنسه. بدأ المشايخ في الترتيل والقراءة بصوت عال، لا

أفهم ما يقولون لسرعتهم في القراءة حاولت اصطياد بعض الكلمات التي يرددونها لأعرف أي سورة يقرؤونها، إلا أنني لم أفهم إلا عبارة هو الله وهووووو الله. هو هوهوهوهو.

التفتّ إلى يميني لأجد الشيخ الذي كان برفقتي أمام قصر كوردان علّه يملي عليّ شيئا حتى أشاركهم في هذا الطقس، رغم أنه يلمح فقط في إجاباته، إلا أنه يساعدني كثيرا في تخطي المتاهات، لم أجده في النظرة الأولى المتفحصة للقاعة، ثم أدركته بجانب الخليفة العام للطريقة، صاحب الكرسي هناك في نهاية القاعة في كامل ابتهاجه وقد فرشت الحمرة على وجهه. نهض الجمع من مكانهم. اصطفوا وتراجعوا، ثم تقدّم واحد منهم إلى الخليفة، انحنى أمامه، أحنى رأسه قليلا، ثمّ ركبته في وضع التحية. اكتفيت بالمشاهدة وخطوت خطوتين نحو الخلف، حتى صار الباب المؤدي إلى خارج القاعة بجانبي تماما، فاتني المشهد الذي ودِدت استكماله لولا أن قاطعني أحد هم عندما قفز أمامي في القاعة. استكملته في الشخص الثاني الذي تقدم إلى الخليفة، انحنى أيضا وقبّل يده وهو جالس في مكانه، تواصل التقبيل والمدّ والجزر داخل القاعة، ثم تعالت أصواتهم دفعة واحدة، الله، الله.

كان أبي يردّد كلمة الله ببطء وحزن عندما تركته أمي، نطقها باكيا كأنه كان يرجوها ألا ترحل عنه، كنت أعتقد أن ذكرها لا يكون إلا في حالات الضعف لكنّهم يذكرونها بفرح.

انسحبت إلى داخل الكوخ بعدما أفقت من رحلة في الذاكرة، سافرت من "تاويالة" من أمام قصر الأتراك إلى عين ماضي إلى قصر كوردان، وما بين القصرين زمن يعج بالتاريخ والفوضى، سؤال يجوب هذه الأرض بين قصورها وبين أزمنتها اختلف المشيدون.

أدرك لعرج أنه لا بد من النوم قليلا، والمغادرة قبل طلوع الفجر. تاويالة يراودها الفرنسيون أكثر من الغيشة. الطريق ما زالت طويلة باتجاه مولاي إبراهيم. تنهد وشعَر بضغط على صدره، مدّ يده متلمسا سلاحه في هذا الظلام، تمتد يده إلى الرشاش كلما تذكر الضابط **كويرنتان** كأنه يقتله في خياله وفي أحلامه كلّ ليلة وكل يوم وفي كل لحظة. كلما تقلب على جنب ردد بصوته الخافت :

اااه تركتها لك أيها الضابط اللعين، لكن مادمت سأبقى ضعيفا فيها سيكون ألمي أكبر وأكبر فيصبح الرحيل أرحم، أي يوم قادم يا الغيشة يعيدني إليك في ثوب الرجل الثائر، أي قوة ستمنعني أن أحمل إليك الخلاص.

الجزء السابع

سليمان بعد أن خلفه لعرج كئيبا في القرية منتشيا في صمته لا يتمتم إلا ببعض الكلمات كمجنون. لم يكن هكذا إلا بعد أن صار شيئا ما يتآكل داخله، صار يحدث نفسه طوال اليوم ويتجول في أزقة القرية مع كل صباح يصعد إلى الجبل ولا يتوانى لحظة في زيارة الوادي، أحيانا يسلك طريق الجنوب المؤدّي إلى الزاوية يتبع قوافل المارة والزوار، يتبادر للعيان كأنه يخطط لشيء ما، سكان القرية يعرفون طباعه الهادئة وسلميته المعهودة وعزفه الحزين في أحلك الليالي، لكنّه مؤخرا أصبح كثير الحركة والتسكع في أغلب الأوقات، ومنعكفا أكثر على نفسه، يتسلل من بيته في أعلى التلة كل صباح لا يعود إليه إلا ليلا ليخلد إلى النوم بعدما ينال منه التعب من التجوال والعزف، ازدادت غرابة طباعه لسكان القرية ولفتت انتباههم إليه ومن سلوكاته التي تزداد غرابة يوما بعد يوم، حديثه مع نفسه بصوت عال، لا يمكث في بيته كثيرا، حتى وإن تزامنت خرجاته مع مداهمات العسكر للقرية، أصبح لا يفرّ منها، كما كان يفعل من قبل مثل بقية السكان، كأنه يعترض الموت أو يبحث عن حتفه.

أصوات المحركات فعلت فعلتها في إثارة جنونه هذا الصباح، خرج من بيته وألقى نظرة إلى أسفل الساحة بالقرية، ثلاث عربات وثمانية أحصنة وعشرون جنديا وربما أكثر، بدأ الناس في الاختباء بين الأزقة، القرية بدأت تخلو من أصوات السكان التي خلفتها، أصوات المحركات وجنود **كويرنتان**، تقدم أكثر نحو ساحة القرية مختبئا بين الصخور إلى أن صار على مقربة منهم حيث يمكن له أن يسمعهم ويراهم دون أن يروه أو يعرفوا مكانه، ساد صمت رهيب وسط الساحة، اقترب القائد من أحد الأشخاص الذين لم يتمكن من المغادرة قبل وصول العربات.

نغزه بعصا صغيرة سوداء على ذقنه، ثم أعلى وجهه وتفرس في ملامحه، ثم دفعه بتلك العصا حتى ألصق رأسه بالجدار الذي كان وراءه. نظر إليه ببرودة قاتلة، ووجه يحمل الموت في كل خط من خطوط ملامحه.

تأمل الضابط وجهه جيدا، ثم أنزل عصاه من على ذقنه، وتراجع قليلا بخطوتين، ربما لم يكن هو الشخص الذي كان يبحث عنه في هذه العملية، فهم يأتون في كل مرة لاعتقال أحد ما ولا يتورعون عن فعل أي ذلك، تمتم: ليس هذا هو الشخص الذي أريد، زاد توتر سليمان من وراء الصخرة التي تبعد بعض خطوات عن العسكر، تلمس جيبه بحثا عن خنجره، يدرك أنه لا مناصة

من طعن الضابط إن حاول إلحاق أذى بذلك الشخص المذعور، كأنه يريد أن يعود أدراجه باتجاه التلة حتى يسهل عليه رميهم بالحجارة، خاصة وأنه من الصعب عليهم الصعود إليه، ندم للحظة على نزوله إلى ساحة القرية، لأن أي حركة بسيطة هنا تعني النهاية المميتة بين الصخور، لكنه لم يحرك ساكنا ولبث في مكانه وكأنه عرف أن التقاط معلومة من هذا المكان تساعده على معرفة سبب مداهمة الجند للقرية تكون أفضل من المغامرة. أشار القائد بحركة سريعة من رأسه إلى بعض العسكر، فتقدموا من الرجل وأمسكوه من ذراعيه كي لا يفر منهم، مشى وتبعوه في زقاق القرية الرئيسي، كأنما ليدلهم على مكان أحد أصحابه، ثم اختفوا وسط الزقاق. قفز سليمان من مكانه واعتلى الصخرة التي كان يختبئ وراءها في استعداد منه للاختباء في حال عودتهم، بعد أن تأكد من أن الجند قد مضوا إلى ما يريدون، وأنهم لن يعودوا إلى المكان، ركض باتجاه الزقاق الجانبي من جهة الشمال، اتخذه مسلكا موازيا للجنود حتى يتبعهم دون أن يتعقبهم مباشرة، هرول مسرعا حتى منتصف الزقاق، أسند ظهره إلى باب أحد المنازل المطلة عليه حتى لا يتراءى لهم في حالة مواصلة سيرهم باتجاه الزقاق العلوي والأخير المطل على الطريق المؤدي إلى الوادي، قلبه يكاد يفر من شدة الخفقان، وأنفاسه باتت في تسارع مثل مطارد مذعور. حاول استرجاع هدوئه

لكنه لم يستطع. بعد أن رأى الجنود قد توقفوا عند بيت صديقه لعرج، زاد هلعا؛ وقال في نفسه:

لن يجدوه أبدا، فقد رحل، وربّما سأصير أنا المستهدف الآن لأدلهم على مكانه.

- اللعنة ! من اليوم فصاعدا يتوجّب عليّ أخذ الحيطة من معظم سكان القرية. لن أثق في أحد.

تراجع سليمان من الزقاق الذي قدم منه متتبعا العسكر، ركض بسرعة إلى نهايته تجاوز ساحة القرية واختفى بين الصخور، وما إن وصلوا إلى عرباتهم وقد أخلو سبيل الرجل الذي قادهم إلى بيت لعرج حتى صار سليمان في أعلى التلة بجانب البيت. راقبهم وهم يغادرون القرية على متن عرباتهم، وعندما أحس بقليل من الأمان، وأنه صار بمنأى عنهم بعدما اختفوا عن أنظاره، ولم يعد يسمع أصوات محركاتهم، نزل مسرعا باتجاه المكان الذي فرّ منه قبل قليل، علّه يصل إلى ذلك الرجل قبل أن يغادر، فهو لم يعرفه حتى من يكون.

قصد المكان، بدا له الزقاق خاليا من المارة، تقدّم إلى نهايته، فلم يعثر على أحد بالمكان، سار باتجاه الزقاق العلوي بعد أن تأكد من أن الشوارع الأخرى خالية، صار مثل تائه مجنون وسط القرية،

حتى أنه لم يميّز بين المكان الذي بحث فيه والمكان الذي لم يطله بحثه.

توقف قليلا ليسترجع أنفاسه، وقف بين بيوت القرميد المتقابلةفي نهاية الزقاق رفع رأسه قليلا نحو سقيفة أحد المنازل، رأىحمامة بيضاء على رف القرميد فوق الباب، شدت نظره بدا وكأنه تجمد في مكانه. تأملها بصمت وحزن شديدين، لسليمان روابط مع الحمام كان يهوى اصطياد الأجمل منها، يقبض عليها حية ليهديها لصديقه لعرج الذي يهديها بدوره إلى ذهيبة، أويرمي لها شيئا من فُتات الكسرة حين لا يكون قادرا على ذلك، فتجتمع حوله أسراب منها.

كل الحمامات في القرية تذكّره بلعرج وذهيبة، وتذكّره بأيام زوجته حبيبة.

عاد سليمان من سفره القصير في الذاكرة وانقشع الحنين الذي راوده مع الصوت المخيف الذي أطلقه الطائر حين انطلق محلقا فجأة مخلفا وراءه تدفقا ناعما من الحنين، هو الذي عرف

بصلابته، ولم يشعر بالضعف منذ وفاة زوجته حبيبة قبل سنة كاملة، لم تخفه أصوات المدافع عندما كان مجتمعا بها، وصارت تذعره رفرفات الحمام بعدما رحلت، اهتز في مكانه وعاد إلى صحوته، أحنى رأسه مثل مهزوم، سار قليلا حتى صار بجانب بيت

أما يامنة، لم يأبه له فقد صار شارد الذهن يطارد الذكريات يحمل بداخله كتلة مشتعلة من الغضب لا يعرف أين يصبها حتى يهدأ روعه، صار الباب من خلفه بخطوة أو خطوتين , فتح الباب ثم أغلق من خلفه بعد أن خرج أحدهم من المنزل تبعتها عبارة لصوت رجل من وراء الباب قائلا:

- "لا تطيلي ياذهيبة يابنتي".
- آآآه يا ذهيبة، هذا ما يخيفني، لم أكن أريد لقاءك لخوفي عليك تمتم بين شفتيه، استدار في مكانه دون أن يشعر، وقع في مأزق تحاشاه منذ أن عادت .

التقت عيناه الثائرتان بعينيها الذابلتين ووجهها الحزين.

تبدو عليها آثار البكاء والسهر والبؤس المقيم، جسمها صار نحيفا مثل سنبلة وحيدة منحنية في الفلاة تنتظر التمدد على الأرض حتى تهرب من ريح تكاد تقصم عودها، اعتقد أنها لن تتعرف عليه، كان ممتلئا وقوي العود، صار نحيفا، عظما فكيه قد برزا فغيرا شكل وجهه وكل ملامحه بوضوح، شعره صار كثا وقد تدلى دائريا حتى غطي حاجبيه، والغبار كسا كل شعره وثوبه، حتى صار أشبه بإنسان قد نجا للتو من عِراك قاتل.

تربّعت رعشة على شفتيه حينما نظر إليها وسألته عن حاله :

- سليمان كيف حالك؟

- عمرك طويل، فقد كنت أكلم عنك الحمام قبل قليل.

أحسّ بأنه اقترف خطأ فادحا يعيدها إلى دوامة الحزن إن كانت قد نسيت لعرج قليلا، شحب وجهها أكثر، فأدرك أنه وضع إصبعه على جرح حديث.

لم تعد لي رغبة بالحمام ولا برؤيته منذ اختفاء لعرج، الله يرحمو وأحنت رأسها، فهم من كلامها أنها قد فقدت الأمل ولم تعلم حتى الآن أنه كان في القرية خلال غيابها، غادرت بجرح وعادت بجرحين.

- لا لم يمت.

-من قال لك هذا الكلام؟، هل سمعت عنه شيئا؟ اضطربت قليلا وتملكتها رعشة بمزيج من الخوف والفرح، تلعثم لسانها فاقتربت منه. أمسكته من قميصه:

-هيا قل.

-لقد كان هنا في القرية، مكث أسبوعا ورحل، لم يصبر على البقاء دون أن يراك، أعتقد أنك ستطيلين المكوث هناك.

-هل كان هو بالذات؟ أأنت متأكد؟

- بدا من عينيه أنه كان مشتاقا، أما من كلامه فيبدو أنه صار قاسيا، الشهور التي قضاها في السجن هي التي زادت من قسوته

على نفسه ربما فأصبح كبرياؤه هو الغالب عليه أكثر من أي شئ آخر.

حقده تجاه العسكر أرغمه على المغادرة إلى حيث

يتسنى له أن يصب غضبه، هكذا قال يوم رحيله.

- ألم يخبرك عن وقت عودته إلى القرية؟
- تأوه سليمان ثم أضاف:

أرادني أن أخبرك بأنه سيعود، يقول لك انتظريني يا ذهيبة سأعود يوما.

سبقتها دمعة صغيرة تودّ الانزلاق على خدها الشاحب غير أنها اسبتسلت، فهي لا تريد الانهيار أمام أي رجل كان، غير لعرج تراجعت نحو الباب واستدارت.

مرّرت وشاحها الأسود على وجهها ماسحة الدمعة الأولى دون

أن يُحس سليمان بذلك، حاولت تغيير الموضوع، أخبرته أن والدها بالمنزل ويمكنه الدخول أيضا، ليسأل عنه لأنه دائما يردد اسمه ويذكره في فترة الغياب عن القرية.

استأذن سليمان قبل الدخول إلى البيت، جلس في باحة البيت رفقة اما يامنة وزوجها إلى غاية المساء، تبادلا الحديث عن حال القرية في غيابهم ونقلا له خبر وفاة ابنتهم زهرة في وعدة سيدي

الناصر، تأسف كثيرا لما حصل لهم، عزّاهم في مصابهم وغادر مع غروب الشمس إلى بيته.

نهار جديد يُطل على القرية الهادئة وهي تشهد حركة مع بداية اليوم فقط والمساء: الصباح للقوافل والمساء للعسكر وأحيانا يمكث العسكر بالقرية طوال اليوم.

يقضي الناس حوائجهم في الرعي وآخرون يحلُّون بالقرية بعد عودتهم من المدينة، بعضهم على متن أحصنتهم وآخرون يستقلون القوافل التي تمر بالغيشة باتجاه الجنوب وهي تقصد الزاوية، كما اعتاد أهل القرية على المداهمات العسكرية التي صارت كل يوم في الفترة الصباحية، يتحاشون الهروب كي لا يجلبوا الشبهات لأنفسهم، فالقرية كانت آمنة، يجب أن تستمر كذلك في نظر السكان، هكذا يريدون، غير أنها بعد خروج لعرج من السجن ورحيله في وقت مبكر، جعلت جنود العدو يرتادون القرية باستمرار، أصبحوا يضعون حواجز أمنية في مخرج القرية لتفتيش القوافل والعربات المتجهة إلى الزاوية، يطوّقونها من كل الاتجاهات المؤدية إليها، يخافون أن تصبح مركزا لعبور الأسلحة، وتصبح الزاوية بؤرة ثائرة ضدّهم، فيتمرد شيوخها المسالمون.

أهل القرية يحاولون عيش حياتهم في سلام دون مخاطر أو تهديد، البعض منهم بدأ يفكر في الوشاية بسليمان: فتصرفاته قد

تجلب لهم التهلكة في أي وقت، غالبية السكان يتمنّون وقوعه في يد الجنود، يتجنبون قساوة الضابط "**كورنتان**" فهو بالكاد يعرف كل سكانها، يساعده في ذلك أحد القياد من القرى المجاورة.

سليمان أصبح هاجسهم، يرون أنه ينغِّص عليهم عيشهم.

إن اقترف حماقة ما في حق أحد الجنود، أو مع إمام القرية الذي أصبح يرتاده الجنود الفرنسيون مؤخرا، سيحدث ما يخشاه الجميع.

طارده الجنود في إحدى المرات، لكنهم لم يتعرفوا عليه، كان مثل الطيف يختفي بلمح البصر. توقفت إحدى عربات الجند بالقرية، فبدأ بالصراخ في وجوههم كمجنون، لم يستطيعوا اللحاق به، اختفى فارّا منهم، هو يعرف جيّدا متى يظهر ومتى يختفي، لقد ركض عمرَه بين أزقتها، حفظ اللفات والخطوات وعدد ربواتها، طاردوه فصعد التلة متخفّيا بين الصخور تحاشيا لرصاصهم المنبعث من البنادق وسط صراخ وهلع السكان الذين بدؤوا يلوذون بالفرار إلى منازلهم. صار أمام بيته، حمل الحجارة التي تشتهيها يداه استعدادا لأي جندي يكون قد تعقّبه من الساحة إلى فوق، لا يتعقبونه إلى حيث يهرب مخافة من أن يكون قد نصب لهم كمينا.

عندما بدؤوا في الرحيل، راح يقذفها مثل قنابل يدوية بكل ما يملك الحقد من قوة مُصدرة دويّا مروّعا حين تصطدم بعربات الجنود.

توالت هجماته وزادت شراسته، يبدو شرها للدماء، الحرب تدق طبولها في عينيه وفي أصوات الحجارة.

أفلح مرة في إصابة أحد الجنود على الكتف، كان يوما عسيرا عليه وعلى السكان، لم يغادر فيه الجنود يومها والضابط **كويرنتان** القرية إلاّ بعد عصرذلك اليوم.

ازداد غضب الضابط، وصار سليمان بالنسبة إليه مطلوبا على قيد الحياة، وكثيرا ما إذا صادفوه في طريقهم ألغوا التمشيط محاولين الإمساك به، لكن من دون جدوى، كل محاولاتهم لم تجدِ نفعا مرّت الأيام دون أن يلتقي يلتقي بذهيبة أو حتى يتقصى أخبارها، كي يعلمها بالمزيد عن لعرج في فترة غيابها، فيذيب بعض الحزن عن وجهها ويعيد إليها أمل الانتظار.

زار القرية في هذا المساء، عندما غادرها الجنود، اقترب سليمان من بيته وجلس على صخرة يعدها حصن دفاعه الأوّل.

تتراءى له القرية من فوقها، أخرج نايه القصبيّ الصغير من جيبه، وضعه في فمه، وانطوى عليه، بدأ في العزف عليه، فأصدر لحنا حزينا، كأنه بكاء يخرج من قطعة القصب، وأنين طويل وآهات تشبه في عزفها أغنية شعبية يردّدها البدو ويعبّرون بها عن حسرتهم، يبعث بها إلى مسامع الناس التي تبدأ في التجمع وسط

ساحة القرية، آلام نايه المتقطعة تلين معها قلوب السكان والبعض الآخر يعطف عليه والقلة تفهم ما يشعر به.

كأنه يمسي ملاكا مع حلول الظلام، فكثير من المشاعر القاسية يلين أصحابها في المساء، كانت هذه العبارة التي تردّدها "اما يامنة" وترسخ في ذهن ذهيبة. اما يامنة تبكي أثناء عزفه؛ فهو يعيد إليها صورة زهرة وأيام الألم تلك، يمزقها من الداخل بنايه. وحدهم الذين فهموه من بكوا أثناء عزفه، تقول ذهيبة في نفسها وهي تسترق النظر إلى أمها :

-لا يحتاج المرء للتعبير عن آلامه إذا ما صادفناها في طقوس الآخرين. كل حسب جرعته.

تجتمع الجروح فيها وتكتفي قلوبنا بذرف نوتات الوجع، حتى القرية يلفّها سواد السماء عندما لا يبتسم سليمان عشية مكوثه بأعلى الصخرة.

الجزء الثامن

صباح جديد أشرق على لعرج خارج قريته يسترجع لحظاته بها لإخماد أشواقه، أمور الحرب هي ما تشغله هنا، وصل إلى المكان الذي زاره مرارا واستغرق أسبوعا كاملا في المسير إليه على ظهر جواده، وصل إلى المدينة التي كانت تستعد للحرب على لسان عمار الباريكي، هو لم يره منذ أكثر من ثمانية أشهر؛ فآخر مرّة مكث فيها كانت عند صديقه وتجوّلا في المدينة، زار جبل بونقطة ومولاي ابراهيم، تصادف أثناء عودته إلى القرية مع العسكر الذين ألقوا عليه القبض، وبعدها سجن في المدينة، مدة طويلة يا عمار غيبتني عنك وعن البيّض، ردّد لعرج داخله وهو يترجّل من على ظهر حصانه، أمسك باللجام فتبعه حصانه، في أحد شوارع المدينة الرئيسية . كانت أعداد الناس في تزايد مع بداية اليوم كالعادة؛ فالحياة في المدينة لا تشبه الريف، بعض المارة يقتنون ما يحتاجون وآخرون يبيعون برانس مختلفة الأشكال والألوان،

مرّر لعرج نظرة شاملة وسط الباعة والزبائن والمارة، ولاحظ أن الطريق تحولت إلى سوق. لا يتذكر إن كان هذا موجودا فيما مضى أم لا، ثم تذكّر أنه لم يمكث إلاّ أربعة أيام في المرة الماضية وكان قد قضاها بين بيت صديقه عمار والجبل. وتلاشى وسط الزحمة. غدوا

إلى حيث ينتهى هذا الاكتظاظ، كان سماع بائع الأعشاب الذي يعرض عقاقير العين والحسد أمرا مزعجا.

" شفاك عندي وبركة سيدي "وين راك" يا المغلوب".؟

تناقص صراخ الرجل في أذن لعرج مع كل خطوة يدنو بها من نهاية الشارع. انعطف يسارا، بدأت المدينة تخلو من الضوضاء التي كان قد خلّفها وراءه، ما إن وصل إلى المنعطف الثاني حتى أحسّ بوقع أقدام على الأرض تلاحقه، توقّف في مكانه برهة دون أن يستدير وانحنى كأنه يعدل خيط حذائه، حتى لا يلفت انتباه من كان يتعقّبه، ثم واصل المسير، وفتح حاسة السمع عن آخرها؛ فهو يفرّق بين حوافر الخيل ووقع الأقدام.

واصلت الأقدام تعقبها إلى أن وصل إلى المنعطف الأخير من الشارع حيث يطل يمكن أن يظهر له بيت صديقه عمار، بعد المنعطف الأخير ظهر الرجل من خلفه مباشرة، عباءته تغطي رأسه المتدلي.

سبقه مباشرة واتجه إلى الجانب الآخر من الطريق، شعر لعرج بخوف بدأ يعتريه، وبرودة بدأت تلبسه صعودا من أسفل قدميه إلى ركبتيه، جمد في مكانه. نزع الرجل الغطاء من على وجهه وأومأ إلى لعرج برأسه أن لا يقرع باب بيت عمار، تراجع لعرج عما كان قد عزم عليه، توجه الرجل إلى نهاية الشارع موحيا إليه برأسه من

جديد بأن يتبعه، تردد لعرج في أن يفعل ثم حدثته نفسه: ما الذي يريده هذا الرجل؟ ما الذي يريده من رجل غريب عن المدينة، فهو لا يعرفني بتاتا؟

تقدم لعرج في المسير متتبعا الرجل الغريب إلى نهاية الشارع بحذر شديد، قلبه يكاد أن يطير من شدة الخفقان، فتسارع الدقات صارت تطنّ في أذنيه، ربط حصانه بشجرة صفصاف قصيرة بجانب الطريق.

توقف في مكانه، اقترب منه الرجل الغريب وقال:

- لم تذكرني؟

أجابه لعرج: لا أعرفك مطلقا، فكيف تريدني أن أتذكرك؟، رأيتك تتبعني من الشارع الأول إلى هذا المكان، قل لي ما الذي تريده؟

ردّد لعرج الكلمات الأخيرة وقد تغيّرت لكنته إلى قسوة بدت على حاجبيه، وقد أمسك به من كتفه، وراح يحدثه وفكاه منقبضان إلى بعضهما من شدة الغضب.

صمت الرجل الغريب ولم يطاوع لعرج في تصرفاته وحاول امتصاص غضبه بابتسامة صفراء مصطنعة وقد سكنتها رعشة الخوف ثم قال:

- لا داعي لكل هذا، أنا صديق لعمار، وقد التقيت بك مرة حين عدتما من مهمة، وتركتما الحصانين عندي. حينئذ هدأ لعرج قليلا، ووصار

ألطف معه بعدما شعر أنه بمنأى عن الخطر وسأله مباشرة عن أحوال عمار:

أين أجده إن لم أقرع باب بيته؟ هل تدلني على مكانه؟

طأطأ الرجل رأسه في حيرة، ثم لم يتوان عن الإجابة:

عمار "الله يرحمو يا خويا". قتلوه لكلاب. استشهد منذ شهر تقريبا، وشى أحد الخونة يقال إنه شقيق قايد، راقبوا تحركاته، تعقبوه ليلا، اقتحموا المنزل بعدما طوقوا المكان وأخرجوه إلى الشارع وأعدموه رميا بالرصاص.

بدا الحزن على وجه لعرج؛ فعمار صديق الحرب كما كان يسمّيه. في القرية صديقان له: عمار صديق الحرب وسليمان صديق الحب، هكذا كان يحدث نفسه بكثير من الاعتزاز. تنهد الرجل ومسح بكفيه على وجهه متحسرا وأضاف:

عشرون بندقية قتلته والأمرّ والأقسى من هذا أن بيته الآن يسكنه معمر فرنسي يقال إنه ضابط سابق آثر المكوث في المدينة على العودة إلى فرنسا، حتى إن معظم سكان هذا الحي أصبحوا كلّهم من الفرنسيين، لذلك لم أردك أن تقرع الباب الآن، فالذين بداخله هم قتلة عمار يا لعرج.

ردّد لعرج متمتما بكلمات وهو يبدو في غاية الأسى والحسرة على فقدان صديق الحرب، أمسك بلجام حصانه ثانية وسار برفقة

الرجل حيث طلب منه أن يذهبا، فالحي لم يعد آمنا كما كان من قبل.

وصلا إلى حي شعبي خارج المدينة يشبه في سكونه بعضا من الغيشة، وقفا عند باب أحد منازلها، نادى الرجل بصوت مرتفع

اااااخالي عبد الله ... مرسلا استلحانا يبدو استئذانا ضمنيا للدخول. خرج شيخ من البيت وهو يطلب تحضير القهوة قائلا للنسوة على ما يبدو: ها االقهوة، جاو الضياف.

استقبلهم أمام البيت، اقترب الرجل وقبّل الشيخ فوق شاشه الأصفر، قال الشيخ:

- مرحبا أهلا بوليدي كي دايرة يمّاك الجوهر؟

- غاية... إنها بخير تسأل عنك دائما يا خالي.

-اتهلاو فيها، خيتي الجوهر هي وش بقالي من الشيرات... ثم التفت الشيخ إلى لعرج مرحّبا به كأنه يعرفه من قبل.

قدم الرجل لعرج إلى خاله عبد الله على أساس صديق حميم.

دخلوا إلى البيت وتجاوزوا الباحة الكبيرة، ولجوا إلى دار الضياف، جلسوا يتبادلون أطراف الحديث يسألون عن أحوال بعضهم.

تنهد لعرج تنهيدة مطولة تعبرعن ارتياحه من السفروعن شعوره بالأمان، قال خال ولد الجوهر: مرحبا بيك يا وليدي قرب حاجة متخصك، سأحضر القهوة ثم أعود.

خرج الشيخ عبد الله وعاد بقهوة يعلوها عمود من البخار وسبقته في الدخول رائحتها المركّزة بالشيح والخلجلان، تربّع في جلوسه وشمر إلى أعلى ركبتيه، ناول ضيفيه فنجاني قهوة، واستلحن بعد الرشفة الأولى طارحا أول أسئلته على ابن اخته :

- صاحبك واش يكون؟
- إنه من مدينة أفلو.
- آآآه ناس الجبل الأخضرناس لعمور في بيتي هذه من أحسن الأشياء اللي يكتبها ربي وأفضل الصدف التي قد تحدث في الحياة، خصوصا في هذا السن يا وليدي،
- لست عموريّ يا الحاج أنا من الغيشة.

صمت الشيخ قليلا، أعاد صياغة سؤاله بطريقة أخرى تشبه الأولى لكنها أكثر وضوحا:

- ناس "آفلو" طيبون كلهم، سواء كانوا"عمور" أو"نواصر" كان لي منهم أصدقاء في شبابي، غير أن تقدّمي في السن لم يعد يتيح لي السفر نحو الشرق كما كنت سابقا.

أثناء كلام الشيخ عبد الله عن عروش آفلو، وعن الطيبة والنخوة، استحضر لعرج كلام والده عن القايد العموري الملقّب بـ"القايد الكبير" الذي استولى على كلّ أراضي النواصر وطردهم منها، امتلكها وصارت كل غلّتها مقتسمة مع الفرنسيين، وحتى المستضعفون من أبناء عرشه كان يتعرّض لهم، ويختار أجمل بناتهم فتيزوجهن حتى إن وصل إلى الخامسة طلق الأولى. تذكّر كيف حكى له والده عن مقتل القايد على أرض غير أرضه، حينما حاول طرد فلاحيها، استدرجته زوجة أحد المزارعين، إلى أسفل الوادي بعدما أعدّ زوجها خطة مُحكمة للقضاء عليه، ترجّل "القايد الكبير" من على صهوة حصانه وتبع المرأة إلى أن صار صدره في مرمى بندقية زوجها، فأرداه قتيلا بطلقة واحدة.

ما يعرفه الشيخ عبد الله عن أعراش آفلو هو الظاهر من الحياة العادية فقط، هكذا تمتم لعرج داخله.

أنهى الشيخ عبد الله كلامه، وعاد لعرج من جلسات ماضيه مع والده، إلى الذكريات التي جمعته رفقته، وسكنت أعماقه فصار يستحضرها في كل مرة. وضع ولد الجوهر كوب القهوة في السينية، استأذن خاله عبد الله في الخروج من البيت، وأكد على بقائهما مطوّلا حتى يتسنّى له مبادلة الضيف الكلام عن أيام الماضي، لكن بعد اعتذارهما، حرص على أن يعودا إلى العشاء، متوعدا ابن أخته

ولد الجوهر كما يحلو لعبد الله أن يناديه بدفع ثمن الخروف الذي سيذبحه في حالة إخلافهما بالوعد.

- هاني خبرتك مترجعوش والله غير تعوض الخروف، ورافقهما إلى غاية الباب ضاحكا.

وقف ولد الجوهر في باحة البيت باعثا ابتسامة صفراء يملؤها خبث مختبئ داخل الكلمات التي ردّدها على مسامع خاله:

- خالي وددت لو أحظى ببندقيتك لنصف يوم وسأعيدها لك بعد العصر، أريد مرافقة الرجل في رحلة صيد خفيفة.

- حرّك الشيخ عبد الله حاجبيه إلى الأعلى متردّدا بعض الشيء وهو الذي لم يجرؤ عليه حتى أبناؤه في تقديم الطلب نفسه الذي قدّمه ولد الجوهر على عجالة، ودون مقدمات.

- **"المرأة والمكحلة يا وليدي هوما العرض بالذات".**

توسل ولد الجوهر لخاله بكلمات أخرى مستغلا خجله من الضيف الذي وضع يده على كتف الشيخ عبد الله في حركة تُلَيِّن قلب الشيخ. دخل الشيخ عبد الله إلى البيت وعاد بالبندقية وحزام العيارات النارية التي تحتوي على عشرين خرطوشا من ملح البارود، ربت على كتف ابن أخته قائلا :

-إن كانت للصيد حرمتك منها , أما إن كانت للإلتحاق بالخاوة فهي لك , فقط عليك أن تصدقني القول . انا أيضا أريد ان تغادرني

بندقيتي للقتال عن شرف اخر , شرف الأرض يا وليدي أغلى من الكل. أومأ له ولد الجوهر برأسه أن نعم .

وضعها تحت لباسه وخرجا من البيت وطلب ولد الجوهر من لعرج أن يتبعه، خلفا الشارع وراءهما .

عادا إلى المدينة وانتظرا غروب الشمس في بيت الجوهر إلى أن حلّ الظلام. تساءل لعرج طيلة اليوم عما يفكر فيه ولد الجوهر ويدبّر له، غير أنه بدا مطمئنا من ناحيته، وهو الذي كان على معرفة بصديقه عمار رحمه الله، طيلة اليوم الذي قضوه مع بعض. ظلّ شاردا كئيبا يفضحه حزنه في بعض الأحيان. يراود لعرج شعور أن ولد الجوهر يخطط للانتقام. مرّ اليوم بسرعة مثل كلّ أيام الخريف من شهر أكتوبر، بقيا ملتفين في جلابيتهما، يحضن ولد الجوهر بندقية خاله في حزن، رفع رأسه باتجاه لعرج قائلا:

أنت لا تملك بندقية للصيد؟

-لا أملك بندقية، حتى وإن كان أي صيد تتحدث عنه ليلا .

-هناك غنيمة كبيرة سنظفر بها الليلة، أو بالأحرى نستعيدها.

شعر لعرج ببرودة خفيفة تعتلي جبينه، الأمر صار مؤكدا، والحدس لم يخيّبه هذه المرة أيضا، شعر للحظة أن إحساسا يجبره على القيام بالمهمة بنفسه، لا لشئ سوى أنّ دم عمّار الذي هدر يسير في دماءه أيضا.مثلما تسير في روح سليمان .

- أجزم أن سليمان يكون قد اشتعل في القرية، تركته هادئا مثل بركان، لا أدري الآن أين وصلت حممك يا سليمان، أم أنك ما تزال تشتعل، فتقتلك نارك التي بداخلك قبل أن تنقلها إلى الفرنسيين !

ردد لعرج، وقام من مكانه يطلّ من نافذة صغيرة بالغرفة الخارجية المخصّصة للضيوف، في حين انصرف ولد الجوهر إلى داخل البيت، وعاد يحمل بندقية صيد أخرى وحزامين من العيارات النارية. ناول لعرج بندقية واحتفظ هو بالبندقية الأخرى.

-بندقية اشترتها أمي بعدما باعت خلخالها في سوق المدينة. لا أدري سبب إقبال الأم على شراء البندقية، لكنها ربّما فهمت القضية منذ مقتل كثير من سكان المدينة الذين نعرفهم، أحسّت أننا بحاجة إليها على الأقل، دفاعا عن العِرض بعدما فُقدت الأرض، لذلك احتفظ أنت ببندقية أمي وأحتفظ أنا ببندقيته علّه يغفر لي خطيئتي وكذبي عليه. خرجنا من البيت في ظلام حالك بعد العشاء باتجاه الحيّ حيث بيت المرحوم عمار. تسللنا عبر شوارع المدينة خلف الشارع الرئيسي، توغلنا بين منازل السكان، كان السكون يعمّ المكان، والظلام يفترس الأرواح الهائمة ليلا، يمزّق الطمأنينة وسط هذه الأصوات المتعالية من هنا وهناك، هديل الحمام في أسطح المنازل يخلق نوعا من الألفة للمكان، وقع أقدام المارة التي يتسلل صوتها من الشوارع المحاذية، وحدها هي التي تزرع الرعب في نفسي،

ولد الجوهر لا يبدو خائفا، وهو يسير بجانب واجهات المنازل، وأنا أتبعه في هدوء وخوف كبيرين، البندقيتان مخبأتان تحت الجلابيّتين. توقف ولد الجوهر وأخرج سلاحه، ألغى وضع الأمان عن البندقية بعدما تراءت له أضواء العربات قادمة نحوه من الشارع المقابل، أومأ لي بسبباته أن أزيل وضع الأمان أيضا، فعلت.

الشوارع كلها متقاطعة في هذا الحي من المدينة كل شارع يؤدي إلى آخر، ما يسهل الاختباء من شارع إلى آخر، ومواصلة المسير. اختفت أنوار السيارات التي بدت وكأنها توغلت في شارع آخر. بدا هذا من أصوات المحرّكات التي بدأ صوتها في التلاشي داخل الشوارع،

لقد ابتعد الخطر، تقدمنا في المضي نحو بيت عمّار مثل جنود محترفين، فهمت عند وصولنا أن ولد الجوهر يريد الانتقام لعمار. لم يعد هناك مجال أو مكان للتراجع ولا للخطأ، بقي حاجز واحد قد يصادفنا في الشارع الأخير: حانة توجد بالشارع نفسه الذي نسلكه، أقامها أحد المعمرين، ليرتادها المعمرون والعسكر أحيانا. مؤخرا قام صاحب الحانة بتوسيعها مستغلا بيت أحد الجزائريين تم ترحيله من المنزل وأنشأ دار بغي، تقيم فيه بائعات هوى تمّ إحضارهن من أماكن متفرقة، يقال إن الحاكم الفرنسي هو من أمر

بذلك، ليمتص ضجر العسكر، ويبث فيهم طاقة جديدة كلما أرادوا معاشرة النساء، وكلام

آخر عن العسكر الذين صاروا يأتون بعضهم، في إحدى ثكنات المدينة، فأقيمت دار البغي حتى يخمد الجنود المشتعلون فيما بينهم.

وصلنا إلى شارع الحانة، الأنوار مشتعلة بالداخل والأبواب مغلقة، قهقهات تعلو المكان، أصوات الرجال تتداخل مع أصوات النساء، صراخ بعيد المصدر لبعض النسوة من خلف الحانة يأتي من دار البغي، الكل منتشٍ بالنساء أو الخمر أو كليهما.

الجزء التاسع

سكان الغيشة البعض منهم مجتمعون في ساحتها وآخرون عائدون من الغابة برزم الحطب مواجهة لفصل الشتاء، اعتاد الناس تجوال الإمام بينهم والبعض الآخر راح يسانده في الفكرة التي بدأ في الترويج لها علنا بعدما ضمن أن شلة من الرجال صارت في جنبه، وهي مستعدة لفعل كل ما يقوله أو يدبر له، الإمام أصبح يريد التخلص من سليمان بأي طريقة كانت، حتى تهدأ القرية، نظراته كل يوم تزداد عبوسا تجاهه، يضغن له من الشر ما لا يضغن للجنود وللضابط كويرنتان.

سليمان يتحاشى الظهور أمامه خشية أن يشي به للفرنسيين وهم الذين يتعرضون لكل سكان القرية ما عدا الإمام، فتشوا عنه في المسجد عدة مرات دون أن يجدوه، لما كان يترصد تحركاتهم وهم في طريقهم إلى المسجد سمعهم البارحة في المساء وهم يتوعدون الإمام إن تعاون معهم في الإمساك به، سيهدونه بندقية صيد جميلة.

تساءل سليمان في نفسه:

-يسمحون له بامتلاك السلاح، أم يمازحونه؟

ينتزعونها منا، ويهدونها إياه؟ ربما سيفعلون لأنه مسالم، أجل

كل القادمين من ذوي البرانس الحمراء مسالمون، وهم يمتلكون بنادق صيد، ولكنهم لا يقاتلون بها.

انصرف الجند بعرباتهم متوغلين في أزقة القرية، اجتمعوا عند ملتقى الطرق في مدخل القرية الشمالي، واختبأ سليمان إلى أن صار بمنأى من الخطر، توارى في الزقاق المؤدي إلى بيت "ما يامنة" تبادر الى ذهنه أن الإمام سيسعى للتخلص منه كي يحظى بهديته، أم أنه سيفعل ذلك من أجل التخلص منه فقط، توقف سليمان في مكانه، فتح حاسة السمع عن آخرها، التقط أصوات المحركات الخاصة بالعربات وهي تختفي في عمق الطريق الجبلي صعودا، رفع يده باتجاه لحيته وقبض على الشعر المتدلي، يمسح عنه براحة يده، أدرك أن لحيته صارت أطول من أي وقت مضى، شعره صار أكثر كثافة وطولا، مر كل شي بسرعة على سليمان، وكبُر كل شيء فيه داخل هذه القرية، حتى همومه لم تعد كما كانت في الأيام الماضية، أكمل طريقه باتجاه بيته، أدرك أن الفرنسيين لن يعودوا إلى القرية إلا في المساء، بينما يتسنى له الاستراحة.

وضع عمامته الصفراء على رأسه وأحكمها جيدا، غطى نصف جهته، لف برنسه الأحمر على كتفه، فتح قارورة المسك الصغيرة، أفرغ القليل منها في يديه، مررهما على وجهه وخلف أذنيه، دفع باب البيت وانطلق في القرية يعد سكانها وأزقتها.

يتوقف تارة ويكمل طريقه تارة أخرى، يتفحص المارة واحدا واحدا، إذا ما تصادف مع نسوة القرية فإنه يحني رأسه وما إن يصرن خلفه تماما حتى يستدير لرؤية أعجازِهن، يواصل سيره باتجاه الوادي ثم يعود قبل الظهر. اليوم تأخر قليلا؛ فقد تزامن وقت خروجه مع قدوم الفرنسسين إليه طلبا لمساعدته. لن يكفيه الوقت اليوم للوصول إلى الوادي. استدار في مكانه عائدا، سلك زقاقا آخر، يتبادل التحية مع المارة، توقفت إحدى العربات التي تبدو قاصدة القرية ونزل منها شخص بدين فارِه القامة؛ لكأن الأحصنة استراحت بعد نزوله.

بادره بالتحية:

-السلام عليكم سيدي كي صبحت نهار اليوم؟

-وعليكم السلام ورحمة الله، ردّ الإمام التحية على أحد الرجال، هل تقطن هنا في هذه القرية ؟

أجاب الإمام: نعم، وهو يحرك برنسه على كتفه، قصد جذب اهتمام هذا الرجل الضيف.

-أنا إمام هذه القرية:

-من تكون أيها الرجل ؟

-نور الدين ولد عبد الله العموري من القرية المجاورة الجبل الأخضر كما يناديها البعض، أجاب الرجل الغريب وهو يبدو ممتنا لالتقائه بالإمام في أول نزول له.

- بم أخدمك؟

- ربما سيكون أفضل لو تحدثنا بالأمر في مكان آخر، الموضوع الذي أودّ أن أطرحه أهم من أن يطرح على قارعة طريق أو وسط زقاق. طلب الإمام من نور الدين أن يتبعه إلى ساحة الجامع ربطا حصان الضيف بالخارج ودخلا إلى المسجد بعدما طلب الإمام ذلك، تعرف، أنا إمام جديد هنا بالقرية لم أحضر عائلتي معي إلى الآن، ربما لا يمكنني أن أدعوك على الغداء، لكنني سأتدبر إبريقا من القهوة على الأقل

. -لا تتعب نفسك سيدي .

أكد الإمام ضرورة تناول قهوة، وقف عند باب المسجد لمح عجوزا تمر بالساحة، فطلب منها أن ترسل إليه إبريق قهوة مؤكدا لها أنها ستجد أجرها عند الله، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين. عاد الإمام وجلس رفقة الضيف نور الدين، تبادلا أطراف الحديث، حدثه الإمام عن وقت قدومه إلى القرية وعن المكان الذي قدم منه، وأعرب عن أسفه لأنه لا يعرف أحدا بالقرية، وأنه يعيش من الطعام الذي يجود عليه به السكان، تبركا

بالمكان المقدس الذي قدم منه، وتحدث نور الدين عن قريته وعن أمور حياته التي لخّصها في آخر ما حدث له بعد زواجه الأخير، حين تُوُفيت زوجته لأسباب ما يزال يجهلها إلى اليوم. بعد أن دقّ الباب انصرف الإمام إلى معرفة الطارق أحضر إبريق القهوة الذي طلبه، صبّ الإمام كوب القهوة لضيفه وأكملا الحديث، لكن يبدو أن نور الدين هو الذي تفيض جعبته أكثر من الإمام، وإلا لم قطع هذه المسافة من الجبل الأخضر قدوما إلى الغيشة، استغرب الإمام قدومه بعد أن حدّق فيه متعجبا.

ما دامت قد توفيت فما سبب قدومك الى هنا ؟

-اه يا سيدي سأخبرك بسبب قدومي لاحقا، فقط عليك أن تساعدني حينما أريد ذلك، لي صديق في هذه القرية أنصرف لزيارته

-مادام لك صديق في هذه القرية لمَ لا تطلب مساعدته بدلا عني؟

قد يفي بالغرض، رد نور الدين خارجا، وقد ارتشف آخر ما تبقى من القهوة، وضع الكوب ومضى يعدّ خطاه داخل القرية متجوّلا بين أرجائها، لم تبدُ له مختلفة عن قرية الجبل الأخضر، فهم يشتركون في الخيام وبيوت القرميد، ويختلفون في الشعور بالأمان، الناس في الغيشة أكثر خوفا من هناك. سار نورالدين في القرية متجوّلا يكتشف بيوتها وأشجارها وخيامها المنصوبة . النسوة

يعرضن الصوف المغسول للشمس وأخريات يغزلن المجفف منه، يقابله في نهاية الزقاق رجل يدخل خرافه الصغيرة إصطبلا صغيرا بجانب البيت. وصل إلى نهاية الزقاق من الجهة الشرقية حيث الطريق المؤدي إلى الواد. رفع رأسه باتجاه الشمال، سقطت عيناه على الصخور في أعلى التلة، رأى بيتا صغيرا تتطاول من باحته شجرة تين عملاقة سكنه هدوء كأنه اعتكف بعيدا عن القرية، تملك نور الدين فضول فياش عن اللحظة، سار باتجاه التلة قاصدا البيت والمكان، وهو لا يدرك ماذا يريد بالذات من الصعود إلى هناك .

الجزء العاشر

أومأ لي ولد الجوهر أن أجثو خلفه على ركبتي لنتخذ من أحد الجدران المنهارة جزئيا درعا نتوارى من خلفه حتى لا يكشفنا ضوء إحدى المركبات الفرنسية التي تسلك شارع الحانة التي خلفناها وراءنا، مرت المركبة وخلفت أنوارها ظلاما حاجبا للرؤية، ما إن وصلت العربة إلى نهاية الشارع حتى اتضحت لي الرؤية واستمررنا في التوغل باتجاه منزل عمار الذي استولي عليه المعمّر، وصلنا حيث توقفا صباحا وتبادلا الحديث، صار باب البيت يقابلنا تماما، تملكتني رجفة باردة هاربة من أيام الزاوية عندما تسللت ليلا باتجاه قصر كوردان ممزوجة بهلع سقوطي من صهوة الحصان أمام قبة سيدي سليمان رعشة برائحة الموت الذي أخذ حصاني في تلك الليلة، غير أنني تأبطت خوفي، وأنا أسترجع الليلة التي دخل فيها مولاي إبراهيم علينا ببرودة أعصاب وشجاعة تفوح من عينيه، ورائحة البارود القوية، كانت أكثر من طلقة زرع بها جسم الخائن الذي وشى بالقائد محمد نور الدين.

أما ولد الجوهر فيبدو أكثر تحملا مني وقسوة.

كلما اقتربنا من البيت، لزمنا الصمت أكثر مع وصولنا، اختبأنا وراء سور الحديقة المقابلة للمنزل في الشارع الآخر لا يزيد ارتفاعه

عن متر واحد، توارينا خلفه بحيث لا يمكن لأحد من المارة اكتشاف أمرنا. لليل أكثر ظلاما من باقي المدينة في هذا الشارع، الخوف يطوف حول المكان من كل مداخل المدينة لقد وصلنا، ما الذي سنفعله غير هذا الانبطاح خلف سور قصير ؟

أجاب ولد الجوهر بصوت خافت :

ننتظره هنا، الأرجح أنه ما زال لم يعد إلى البيت، فهو يعود منتشيا في منتصف الليل من الحانة.

-كيف علمت بذلك ؟

ارتدت المكان عدة مرات مع أحد أبناء القياد، دفعت ما يكفي من ثمن الخمر حتى باح ببعض أسراره، فقتلُه أمر سهل جدّا، لكنني لم أتدبّر بعدُ حلّا للخروج والقضاء عليه.

-نتسلل معه إلى البيت ونصفيه هذه الليلة، نمضي الليلة هناك وننصرف قبل بزوغ الفجر.

رفع ولد الجوهر رأسه باتجاهي، وبنظرة حادة أومأ بقبول الفكرة، ومتعجبا في الوقت نفسه من القرار الذي اتخذته بسرعة، وأنا الذي لم أكد أتجاوز الشوارع من الخوف . تأكد ولد الجوهر من أن الشارع خال تماما من المارة، هرولنا مسرعين إلى الجهة الأخرى تباعا، أسير خلفه حاميا جانبيه من الشارع، وضعت بندقيتي بأعلى السور، قفزت، وثبّتُّ ذراعيَّ بالأعلى، سحبت جسمي

إلى فوق، لحق بي ولد الجوهر بعد أن أمسكت عنه بندقيته وساعدته في الصعود باحة البيت الكبيرة هي سبيلنا الوحيد للدخول إليه نزولا من أعلى السور كما تسلقناه.

نزلنا وسط الباحة، وقام ولد الجوهر بفتح الباب المؤدي إلى بهو البيت مستعملا أصابع يديه الطويلة في إزالة المزلاج، توجهت

أنا نحو المطبخ، تحصلت على سكينين، ناولت أحدهما لولد الجوهر ورددت على مسامعه بصوت خافت:

أنا أنتظره في المطبخ، وأنت ستنتظره في المرحاض، سيدخل إلى البيت إما ثملا يتجه إلى المرحاض كي يتبول ككلب، وإما جائعا يقصد المطبخ،

-لن نقتله ثملا، سنتركه حتى يصحو من سكرته، على الأقل سيعرف من قتله ولماذا، كما أن الألم في الصحو أشد من السكرة . مر مقدار ساعة وأنا داخل المطبخ أستحضر آخر ليلة قضيتها في هذا البيت رفقة عمار ومولاي إبراهيم .الآن أقضي ليلة هنا، وصاحبه لم يعد موجودا، الموت يسرق واحدا في كل مرة، رفعت رأسي باتجاه السقيفة، والحمامة التي أرعبتني، تقدمت باتجاهها متحسّسا العش، عثرت على فراخها، بعد أن لمستها داخل العش.

"على الأقل صارت حماماتك كثيرة يا عمار، خلفتها من ورائك كي لا تترك هذا المنزل فارغا، هديلها وحده هو الذي سيعمُر المكان بعد موتك، سأنتقم لك، ربما ستهدأ روحك ويعود للحمام هديله، فالفرنسيون لم يكتفوا بالحرب صوت المفتاح في قفل الباب أحدث ضجيجا خفيفا تبعته ركلة خلفية ليقفل الباب من وراء الرجل الذي دخل، يمشي خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى اليسار واليمين، يغني بصوت أرهقه الانتشاء وأحضان النساء الكلمة الأخيرة استنزفت كل ما يملك الرجل من نفس، توجه إلى صالة البيت حيث المدفأة التي يشعلها عمار مع بداية كل خريف استعدادا للشتاء، ألقى بنفسه على الأريكة لتتلقف ظهره ورأسه المتدلية إلى الأمام كمن تلقى لكمة من الخلف . خرجت من المطبخ بخطوات كبيرة صامتة، والبندقية تنتصب في صدري مصوبة باتجاه الصالة، وقفت أمامه واضعا رجلي في بطن الرجل الفرنسي ضغطت بفم البندقية على ذقنه، عندما كاد يطلق الفرنسي صرخته كمّمه ولد الجوهر بمنديل أخرجه من جيبه،

طوقناه في الظلام، نور اللهب المندفع من المدفأة الحطبية تحرّكه نسمات الخريف والرياح المنبعثة، فتتضح معالم الرجل،

يبدو كهلا في خمسينياته، عيناه الزرقوان ترتسمان في هذا الظلام، معالم القسوة تعلو جبينه المتجعد، يبدو أكثر الفرنسيين

زهقا لأرواح الجزائريين، رائحة الموت تطغى على رائحة الخمر في عينيه، لعرج لم يعد يفرّق في طريقة قتل الرجل لأن موته صار مؤكّدا، يفكر في حرقه وجره إلى المدفأة . تراجع عن الفكرة لأن صراخه سيعلو المكان، سينشب حريق ويلفت انتباه سكان الحي فأغلبهم من المعمّرين، وربما سيتزامن صراخه مع إحدى دوريات العسكر الليلية، فيقتحمون علينا البيت. مرت صور الاحتمال الفاشل في رأسي بسرعة، أخرجت السكين من جيبي، وضعته على رقبة المعمر، ولد الجوهر يثبت رأس الرجل إلى الخلف، مرّر السكين الحاد على رقبته، فاض بحر الدماء من حوله، وعلق السكين في الأريكة، فاضت روح الفرنسي واشتد لهيب الموقد واشتدّت معها نيراني للقتل أكثر القتل لعبة قاسية في البدء، لكنّها تصبح سهلة بعد رؤية أول قطرة دم. أفلت ولد الجوهر رأس الجثة من بين يديه.

- *علينا أن نخرج حالا، هيا* .. غادرنا البيت باتجاه الباحة عبر باب الإسطبل، امتطينا حصانين وشققنا طريقنا عائدين إلى البيت عابرين سكون المدينة المخيف. انتهت الحياة بين الناس بالنسبة إلي، ذهيبة والغيشة لم يجتمعا من حولي منذ مدة، موح ومنزله افترقا أيضا، صار من المحتّم علي أن أعيش حياة الجبل، كل الذين سبقوني إليها خلفوا ما خلفته أنا، من ورائي كبرياء أرض وحبيبة.

الجزء الحادي عشر

وصل نور الدين إلى البيت القرميدي بالربوة، المطلّ على ساحة القرية يلهث من شدّة التعب، رغم قرب المسافة بين القرية والتلة، جسده الضخم لم تعد تقوى ساقاه على حمله، اعتاد العربات والجياد التي يغنمها والده القايد عبد الله من القادة الفرنسيين.

وقف في ساحة البيت ليتأمل القرية من أعلى التلة، مد بصره باتجاه الجنوب، الأرض جرداء بين الصفرة والاخضرار، لا يقع بصره على شيء فيها سوى كومات من الغبار شكلتها رياح عابرة أو حوافر خيل لإحدى العربات الغادية أو العائدة من زاوية عين ماضي.

- ارحل أيها الغريب، ارحل.

انطلق الصوت من بين الصخور مهدّدا إياه. واستمر الصوت في أعماقه صدى هادرا كالرعد: ارحل ارحل ارحل

استدار نور الدين، وقد تلبّسه رعب مباغت بعد أن سمع كلمات من أحدهم وهو يأمره بالرحيل، تراجع قليلا متفحّصا المكان في نظرة خاطفة، صوت فرز للحجارة كأنما يقلبها أحدهم من وراء البيت.

نادى نور الدين بصوت متقطّع أقرب إلى الرعشة الباردة:

- من هناك ؟

وقف أمامه سليمان في كامل شراسته التي تظهر في شعره المتدلّي ولحيته العنيفة، قميصه الأبيض فقد نصاعته من غبار الهروب والركض في ثنايا الجبل، يداه أكثر صلابة، حياة البرّيّة تقف في هذا الرجل الذي كانت تطلبه يد الضابط كويرنتان، وإمام القرية، وبعض السكان، ربّما كل السكان يبحثون عنه، ماعدا "امَّا يامنة"، وذهيبة ووالدها.

تمعّن سليمان في الرجل جيدا، أدرك بأنه يعرفه لا محالة، هذه الضخامة قد سبق وأن رآها من قبل، قد يكون هو؟

نعم، أنا متيقّن من أنه هو، تمتم سليمان، والرجل الذي يقف أمامه يكاد يموت فزعا، وهذا المجنون قد تعرّف إليه، سمع عبارته الأخيرة التي ردّدها سليمان .

عادت صور الفتاة زهرة، ولحظة مغادرتها البيت يوم عرسها، عادت عيون "امَّا يامنة" الحزينة على وفاة زهرة بأيّام فقط بعد الزفاف، ارتسمت خيبات ذهيبة وجراحها، عادت كلّ لحظات الماضي التعيس إلى مخيّلة سليمان.

تسارعت الأحداث في رأسه، يريد أن يقتله، الأكيد أنّه سيفعل

إن قتلته هنا، فقد لا يمكنني التخلص من الجثة، سيأتون للبحث عنه عند حلول الظلام بعدما يتأكدون من أنه تأخر،

سأصير مطلوبا لدى كلّ السكان، ربما أخبئ جثته في القبو إلى أن أدفنها لاحقا، كلا، سيصير من المفقودين، وسيخرج كلّ الناس للبحث عنه. ربما يكون صديقا للضابط كويرنتان، ربما يكون ضيفا لدى امًّا يامنة، سيغضبون مني، تردّد سليمان فيما سيفعله وسط كثرة الاحتمالات وتسارعها في رأسه .

أصوات العربات تهزّ أركان القرية ككلّ يوم، أفسد الفرنسيون شهية سليمان في الانقضاض على هذا الفيل.

بدأ الناس ينصرفون إلى منازلهم لحظة المداهمة العسكرية، يبدو تمشيطا صباحيا، تضاعف عدد الجنود هذه المرّة، كان يزداد يوما بعد يوم منذ تولّي الضابط كويرنتان زمام الجند في هذه القرية، توقفت بعض العربات بأعلى القرية أمام الطريق المؤدّي إلى الواد، نزل بقية العسكر إلى ساحة المسجد، تفرّقوا في أزقته، وتجمعوا وسط الساحة، وتوجهوا إلى الإمام على الأرجح، يستفسرونه عن الوضع، يستجوبونه، أو لينقل إليهم أخبار سليمان الذي لم يظهر في اليومين الأخيرين. التحقت فرقة الجنود المتخلفة في أعلى القرية بساحة الجامع يتقدمهم **كويرنتان**، بعدما أمّنت له الفرقة الأولى الطريق، وقف الجميع في الساحة، خرج الإمام من بيته الملتصق بالمسجد ليعرف بما يخدم كويرنتان وجنوده، وإذا كانت طريقهم باتجاه الجنوب، أم القرية مقصدهم؟

هز الإمام برأسه قليلا باتجاه الشمال لحظة وصول نور الدين من أعلى التلة وهو يركض بجسمه الذي لا يكاد يسيطر عليه من مغبة الركض في المنحدر.

أخد الجنود فجأة وضعية الرمي بعد أن فاجأهم الرجل الضخم النازل من أعلى التلة.

-إنه ضيف في القرية ... صرخ الإمام حتى لا يطلقوا على نور الدين فيردوه قتيلا.

اقترب نور الدين من الإمام وشكره على إنقاذ حياته.

- كادوا يزهقون روحي لولا أنك أوقفتهم.

المجانين بالأعلى، يبدو أن الموت صار قريبا مني هذه الأيام .

-اااه نسيت أن أخبرك بألا تصعد إلى هناك. قال الإمام .

كويرنتان يدرك أنه لا فائدة من الصعود إليه وهو الذي باءت كل محاولاته بالفشل في إلقاء القبض على سليمان، أخبر الإمام بذلك :

-لم نعد نملك وقتا حتى نضيعه في ملاحقة المجنون الأحمق دعوه يعيش بينكم كما في السابق، لم تعد لنا حاجة به

وجه الضابط نظراته باتجاه نور الدين الواقف بجنب الإمام قبالة الكتيبة، وقد استرجع أنفاسه، مرّر نظرة متفحصة ملامحه:

هل سبق لك أن زرت المدينة ؟

-نعم، سيدي .

-والدك القايد أليس كذلك؟

-بلى، إنه هو، أنا أيضا عرفتك سبق وأن رأيتك، ما زال أبي ممتنا على الحصان الذي أهديته إياه .

-قد نعود في الغد إن احتجت إلى شيء أخبرني به.

شكر نور الدين الضابط، ودخل الجامع بعد أن انصرفت الكتيبة سالكة طريق الجنوب.

-غريب أمر الضابط اليوم، لم يبدُ مهتمّا لأمر سليمان؟

-أتقصد الشخص الذي كاد يطاردني ؟

-أجاب الإمام: نعم، يبدو أن الضابط قد غيّر خطّته، شيء ما يدور برأسه، أنا عن نفسي تمنيت لو خلصونا منه، كل شيء في القرية جميل ما عدا جنونه الذي عكّر أمنها.

-ألا تخبرني بما جاء بك إلى القرية، أم أنك لا تود الحديث عن سبب قدومك ؟

-ليس الوقت والمكان مناسبين، ألا ترى أني كنت في وضع لا يسمح حتى بتذكر من أنا .هههههه... قهقه نور الدين ودخل رفقة الإمام إلى البيت بجوار الجامع، ثم خرج الإمام يبحث عمن يحضر لهما شيئا من الطعام، خصوصا وأن وقت الغداء قد حان. توجه الإمام إلى مجموعة من الناس المتجمعة بالزقاق بعد أن رحلت

عربات العسكر، شيخان متكئان على أحد جدران المنازل أسلماه ظهريهما من وهن الزمن،

يقف أمامهما كهل في الأربعين هو سي محمود، يبدو أكثر نشاطا منهما، تتربّع على حافة شفتيه ابتسامة رسمت حمرتها على خديه، يلتف ببرنس أكثر نصاعة من برانس العامة، كأنه مهيأ لميعاد هام أو فرح، وصل الإمام إليهم، حيّاهم، فردوا التحية، طلب منهم أن يقضوا حاجته، فلم يسمعه الشيخان الجالسان، أراد أن يجثو على ركبتيه ويضع فمه في أذن أحدهما ويخبره عما يحتاجه من طعام، فردّ عليه سي محمود بصوت هادئ ونبرة تبعث على كثير من الطمأنينة والكرم:

-عندي عرس، سأزوج ابنتي بعد يومين، ستحلّ ضيفا علينا هذه الأيام، البيت بيتك سيدي الشيخ، أمّا الآن فسأكلف شخصا ما بأن يُحضر لك الغداء إلى الجامع، وفي العشاء سآتي لأخذك معي.

-بارك الله لك في مالك، وجمع الله بين ابنتك وزوجها في الهناء والحلال، آمين،

-راني راضي عليك. ردّد الإمام وهو يستدير عائدا باتجاه البيت رافعا يديه ورأسه إلى السماء: آمين، آمين، وهو ما يزال في دعائه حتى اختفى عن أنظار سي محمود والشيخين.

دخل إلى البيت، أكمل حديثه مع نور الدين، أصرّ على ما يخفيه

هذا الرجل، أدرك أنه لا يملك صديقا بالقرية، وأنه كان قاصدا الجامع منذ أن وطئت قدماه القرية، اعترف نور الدين تحت طائل الأسئلة وكثرة الكلام والاستفسار، حتى حين حضر الطعام من بيت سي محمود، كان الإمام يفترس قطعة اللحم بقواطعه المتبقية في فكه العلوي، تتبعها طقطقات يحدثها لسانه الذي كان يستعمله في المضغ والبلع، يتكلّم بين الحين والآخر:

- كنت أعرف أنك لا تملك صديقا أو قريبا بالقرية.

فرغا من تناول الغداء، وبدا أن الإمام قد أفقد نور الدين شهيته لذلك لم يتناول نور الدين كثيرا من الطعام، بدا غير آبه بشيء في هذه القرية، ما عدا حاجته التي قدم من أجلها، جمع الإمام الصحون وأعادها إلى سلة الحلفاء التي أحضر فيها سعيد الابن الأصغر لسي محمود الطعام، وضعها عند الباب وعاد إلى مكانه، أكملا حديثهما وأخبره نور الدين عما جاء لأجله، قهقه الإمام بصوت تعالى ووصل سقف الجامع حتى سمعه بعض المارّة من القرية مردفا:

-أتيت من أجل امرأة يا رجل؟ أليس لديكم نساء في سن الزواج بقريتكم الجبل الأخضر، حتى بعض القادة الفرنسيين، وبعض الضباط لم يعودوا يعيرون اهتماما لنسائهم الفرنسيات مقارنة بجمال شقرواتكم.

-لقد مرّ على وجودي في هذه القرية أكثر من شهر، لم أر فتاة في سن الزواج، بل حتى أنني حاولت اكتشاف الجميلات في عيون آبائهن وملامح أمهاتهن اللواتي أصادفهن في القرية، فلم أعثر على مبتغاي، وسألت أحدهم عما إذا كانت هناك فتاة بسن الزواج، فلم أجد أيضا.

-هذه قد تكون جميلة يا سيدي الشيخ .

-أتمزح ؟ لا تعرفها وتريد الزواج منها .

-تبدو جميلة مثل شقيقتها.

ابتسم الإمام ابتسامة خبيثة ظهرت في ملامح ووجهه التي أطلقت العنان لشراهة رسمت في عينيه مثل ذئب جائع.

-هههههه أنت صديقي الآن، وسنصير صهرين، سأساعدك شريطة أن أخطب أختها.

اعتدل نور الدين في جلسته، بعد أن كان يمدّ رجليه وذراعاه خلف ظهره وأضاف :

-أختها لم تعد هنا في هذه الحياة، لقد ماتت.

قصّ نور الدين الحكاية على الشيخ الذي راح ينصت إليه بتمعن وخشوع فاق خشوعه اليومي، وكلما زاد في وصف المرحومة، زاد المكر اتساعا في رقعة عينيه، وظلا يتبادلان أطراف الحديث حتى العصر.

الجزء الثاني عشر

دعا سي محمود إلى عرس ابنته من دعا، وتوجه إلى بيت أُمَّا يامنة بحثا عن زوجها، ليدعوهم أيضا، علّه يخفف عنهم بعض الجراحات والحطامات التي خلفتها وفاة ابنتهم زهرة في الشهر الماضي، عند وصوله إلى البيت التقى بعمي عيسى والد ذهيبة كما ينادونه في القرية، حيّاه عند باب البيت، دعاه عمي عيسى إلى شرب القهوة، جلسا في باحة البيت قليلا، تبادلا بعض الكلمات، نسمات الخريف الباردة التي تفرش لحلول الشهر منعتهم من إطالة الحديث، دعاهم إلى العرس وأصر على قدومهم في هذه الليلة أيضا لتناول العشاء وإزالة الغم والحزن، فرح عمي عيسى بهذه الدعوة:

-آ يامنة، الليلة العشاء عند سي محمود .

انصرف سي محمود وعمّي عيسى من البيت، خرجت ذهيبة من غرفتها إلى الباحة لتحمل إبريق القهوة والفناجين، مدّت ببصرها إلى شجرة التين في باحة البيت، أوراقها صارت شاحبة صفراء، بعضها أسلمت نفسها لرياح الموسم، فرشت أرض الباحة وأسقف الغرف، أعلن الخريف وصوله بإزهاق هذه الأوراق، بدا لذهيبة وكأن كل العالم تغير واختفت معالم الحياة باختفاء ابتسامة زهرة وأوراق الشجر، تأملت السقيفة المؤلمة التي احتضنت عاما من

الألم والجنون: كانوا يربطونها بالداخل حتى لا تبيت بجانب قبر ناصر، هذه الباحة أيضا بللتها دموع زهرة؛ أختي الدافئة يوم زفت عروسا، كلّ الأماكن صارت تحمل آلاما، وها هو الزمن يجمعها ويتركها خلفنا، سيعود الخريف العام المقبل، ولن تعود معه أوراق الماضي التي سقطت، ستسقط أخرى، ولا ندري أي وجوه أخرى سترحل مع نسماته .

حدّثت نفسها ذهيبة في لحظة سفر حزينة إلى ذلك الماضي القريب، أُمَّا يامنة كانت تراقبها من باب غرفتها، مشت إليها في صمت وسكينة، كأنها تخطو على جليد تخاف عليه من الانكسار تحت قدمها. وضعت يدها على كتفها :

- أهو لعرج، أم زهرة؟

- الاثنان يا أمي، وحدة رحلت من الحياة، وآخر رحل في هذه الحياة، بين التسليم بالقدر، وأمل الانتظار جراح خلفها حطام الماضي.

- تعالي يا ابنتي حضّري نفسك، كي نذهب مساء إلى بيت عمك محمود. ثلاثة أيام في بيت العرس كفيلة بإعادة الابتسامة لهذا الوجه التعيس .

- لا أودّ المبيت هناك يا أمي، صباحات الأعراس باتت تخيفني، لن أذهب إن كنا سنقضي الليلة هناك .

-سنعود لقضاء الليلة هنا إلى أن ينتهي العرس وتزف العروس.

-إن كان كذلك فأنا موافقة، سأحضر نفسي .

أشرفت الشمس على الغروب، بدأ النور يسحب خيوط ضوئه الأخيرة، ولم تبق إلا كتل من نور الشمس التى بدأت في الاختباء وراء الجبل، تميل القرية إلى حمرة الرمال التي تكسو جبال الغيشة قبل أن تلبس السواد نهائيا إلى صباح آخر.

خرجت أنا وأُمَّا يامنة نتبع والدي، إلى نهاية الزقاق الكبير، توجهنا إلى بيت سي محمود، كان يقف عند الباب بكل شموخه، صوته الهادي يتسلل إلى المسامع، وهو يرحب بضيوفه رغم قلتهم، ليلتان قبل الزفاف، لا يحضر إلا الأقارب.

-نحن لسنا من أقربائه غير أنه دعانا، وأصرّ على حضورنا. وصلنا إلى البيت، تنحّى سي محمود جانبا ليترك لنا الباب، دخلنا إلى الباحة التي بدت لي أكبر من باحتنا، قسمها نصفين بعض الزرابي البالية الرثة، أشار بيده إلى اليسار:

- النساء يذهبن من هنا، والرجال من هناك مشيرا إلى يمين الزرابي التي تفصل بين الرجال والنسوة.

دخلنا إلى الجهة المخصّصة للحريم. رحّبت بنا أم العروس وبناتها، جلسنا في الغرفة التي تقابل غرفة الطبخ، بدا أنّها مخصصة لطهو طعام الوليمة، رائحة اللحم والكسكس تنبعث من

القدر الذي صار في كامل غليانه، البيت مضاء بمصابيح زيتية صغيرة مثبتة في الزوايا، سقف البيت كان يبعث نسمات باردة تتلاعب بشمعة المصباح فينعكس ظل النسوة الأسود الكبير يعانق الجدران والسقف، تكاد الشمعة تنطفئ، أُمًّا يامنة لم تشأ أن تبقى في مكانها مع نسوة أخريات من المدعوات إلى الزفاف، سارت باتجاه المطبخ، وآثرت أن تساعدهم في تحضير العشاء، حضرت العروس إلى الغرفة وجلست بجانب شقيقتيها، كانت مرصعة بسلاسل الفضة والخواتم، تلتف بشال حريري يميل إلى الحمرة، بيضاء الوجه، معتدلة القامة، تملأ فستانها بثديين مكورين، تختبئ وراء كحل عينين أكثر سوادا، جلسنا نتبادل الحديث حول طفولتنا فأنا لم أرها منذ أن كنا في سنّ الخامسة، رحلوا الى المدينة وعادوا العام الماضي إلى بيتهم هنا بعد أن سلبهم الكولون بيتهم هناك .

دعتني للخروج إلى الباحة والجلوس ريثما يتم إطعام الضيوف خرجنا وجلسنا رغم النسمات الباردة، نادت والدتها زوجها سي محمود :

- العشاء جاهز.

- أخرجيه إلى الباحة وأنا أتكفل بنقله يا امرأة.

قام سي محمود بالسهر على راحة ضيوفه الذين فضلوا الجلوس في الباحة، لأن الستار يفصلهم عن الحريم، ورأى أنه لا حرج في

ذلك مادامت الباحة مقسومة نصفين فصل فيها بين الحريم والرجال بستار من الزرابي.

اجتمع المدعوون إلى موائد الطعام، كان سكوتهم عن الكلام يوحي بأنهم مشغولون بملء بطونهم.

تعالى صوت من باب الباحة لأحد المدعوين المتأخرين:

-السلام عليكم أجماعة الخير.

-وعليكم السلام، ردّ سي محمود، وتبعه البقية الجالسون:

-أهلا بسيدي الشيخ، تفضل لقد أنرت علينا بقدومك زارتنا بركة، فهمت من ترحيب سي محمود بأنه كان إمام القرية.

- تفضل أنت وضيفك معززا مكرما، ضيفك هو ضيفنا.

كان الإمام ومعه شخص آخر، أصوات الحاضرين تتلقفها مسامعي لأن ما يفصل بيننا هو الستار.

فرغ الرجال من تناول العشاء، وأحضرت لهم القهوة، وهم على تلك الحال من سمر وضحك، إلا أبي، فإني لم أسمع له صوتا من بين الحاضرين، وهو الذي ألف الناس ضحكته وعشقه لأحاديث الليالي وقصصه التي يرويها عن أيام شبابه، سكوته كان محيرا لي، كنت أتردد في الثبات على السبب الذي جعل أبي صامتا: لعله الزفاف ذكّره بوفاة أختي زهرة، غير أن ذلك السبب لم يقنعني، وهو الذي بقي صامدا في أحلك المحن، حتى عندما كان يحمل جثتها من

الجبل الأخضر إلى الغيشة كان شامخا، شيعناها في المقبرة، وعدنا إلى البيت، وهو يحضنني أنا وأُمَّا يامنة قائلا :

لله ما أعطى ولله ما أخذ، ربي أخذ أمانتو.

تنحنح الشيخ ثم قام وسط الحاضرين كأنما ليلقي خطبة فيهم:

باسم الله بديت وعلى النبي محمد صليت. فعم سكوت رهيب احتراما للإمام.

السلام على سيدي محمد الفاتح.

السلام على سيدي الكبير صانع الأمر والتدبير.

السلام على سيدي البشير مول الوقار هو سيد الأخيار.

السلام على أسياد الهيبة مول البرنوس والرهبة حافظ الدين.

-تفاجأ الرجال من الموضوع الذي طرحه الإمام، وانتابهم صمت رهيب، حتى انفجر أحدهم ضاحكا وأردف:

- طلبت منك مساعدتي على خطبة فتاة، فأراك تهرع إلى البحث قبلي.

سمعت ذهيبة الحوار الذي كان يدور عند الرجال غير أن كلام الرجل الذي أعقب عن نية الإمام في الزواج لم يبد غريبا عنها، بدا مألوفا لكنها لم تتأكد، عند مواصلة الرجل للحديث ومقاطعته للإمام في كل مرة واشتدت حدة الكلام بين الإمام والرجل. ساد

صمت وسط الحاضرين الذين حاولوا فهم سبب احتدام النقاش بينهما.

انتابها الرعب، وأحست بقلبها يكاد أن يخرج من بين ضلوعها، دقات قلبها تكاد تفضحها والدوار بدأ يفعل فعلته بها، تأكدت من أنه هو رددت في على مسامه صديقتها مشيرة لما خلف الستار:

-أجل إنه هو ذلك الفيل، زوج زهرة، ما الذي يفعله هنا، أي زوجة أخرى يريد أن يرسلها إلى القبر؟

واصل الإمام كلامه وقد ارتفعت نبرة صوته:

أتقدم من هذا المجلس الكريم بنية صافية مثل نية صاحب البيت بخطبة بنت سي عيسى على سنة الله ورسوله .

وما إن تلفظ بآخر كلمة، حتى سمع دويا للرصاص خارج البيت تبعته دقات بعنف على الباب، هرع الجميع من الباحة إلى الداخل.

- إطلاق للرصاص، أحدهم يريد أن يقتحم علينا البيت، ردّد سي محمود، وقد اصفر وجهه، حاول الإمام تهدئة الوضع، وزرع الأمان فيهم:

ربما هم الفرنسيون عائدون من الجنوب، مروا صباحا وذكر الضابط أنهم قد يداهمون القرية في المساء، ربما قد تصادفوا مع المجنون، فأطلقوا عليه تحذيرا حتى لا يتعرض لهم بالحجارة.

هدأ روع الحاضرين بمن فيهم عمي عيسى .

بعد أن سمعت رغبة الإمام في الزواج بها وطلب يدها من والدها أمام الضيوف، وتبعها صوت الرصاص خارج البيت حاولت ذهيبة التشبث بالستار فلم تستطع، حاولت التراجع خطوتين لتمسك بحائط البيت، أو بالعروس وكانت قد دخلت إلى البيت ولم تنتبه لها لم تستطع مقاومة الدوار فوقعت على الأرض من جراء ما سمعت وأغمي عليها، خرجت النسوة من الحريم مسرعات إلى الباحة، بعد أن سمعن صوت الرصاص، عثرن على ذهيبة مطروحة على الأرض مثل فراشة هوت على جناحيها المكسورتين.

أطلقت أُمَّا يامنة صرخة جذبت انتباه الضيوف، واستقرت صرختها في مسامع عمي عيسى الذي وجد نفسه يركض باتجاه زوجته، واقتحم الحريم، ساعده سي محمود في حملها وأدخلاها إلى غرفة بالبيت. الضيوف من الرجال بعدما هدّأ الإمام من روعهم، أرسلوا شخصا ليتقصى الوضع في الخارج، غادروا إلى بيوتهم بحيطة وحذر. استيقظت ذهيبة من غيبوبتها، بعد أن بللوا وجهها وأطرافها،

بماء أحضرته أُمَّا يامنة في إناء صغير.

نادى سي محمود الإمام الذي كان مغادرا للبيت عند الباب وطلب منه رقية الفتاة، لم يتوان الإمام في الموافقة، وطلب من نور الدين انتظاره بالباحة ريثما يعود إليه، استنكر عمي عيسى فكرة

الرقية، وهو الذي يغار على بناته بشدة غير أنه لم يبد اعتراضا إن كانت سترتاح، علامات الانزعاج كانت بادية عليه لأن سي مصطفى لم يعرض عليه الفكرة من الأول.

استدار الإمام وعاد باتجاه الغرفة التي تستلقي فيها المريضة .

دخل الإمام إلى الغرفة تفحصها من زواياها الأربعة بلمح خاطف سقطت عيناه على المكان الذي ترقد به ذهيبة.. مستلقية مثل كتلة لحم بيضاء، تفترش شعرها الذي تدلى من تحت خصرها ولامس الأرض .

العرق يتصبب قطرا منها، تتأوه مغمضة عينيها، تتمتم بكلمات لم تبد مفهومة. أمر الإمام أن يحضروا قليلا من الماء، أحضر سي محمود كوبا ووضعه أمامه. الإمام يتمتم ببعض الكلمات داخل الكوب ويتمعن عينيها المغمضتين، يراقب تنفسها بتفاصيله الدقيقة، تنزل عيناه إلى أسفل رقبتها، راقب حركة نهديها تحت ارتفاق القميص، أحس بطعنة تخترق ضلوعه وانطلقت شرارة حارقة مثل وهج تتسلقه من قدميه إلى أعلى، استيقظ الذئب داخل الإمام، تلعثم لسانه أثناء تلاوة الآيات كلما أطال النظر إليها، قطرات الماء المتطايرة من رؤوس أصابعه إلى وجهها تعيد لها الحركة شيئا فشيئا كأنها بدأت تستيقظ وعادت إلى وعيها بعد رشة ماء أخرى من الإمام .

ساعدتها أمها في ارتشاف قطرات من الماء، بينما انصرف الإمام من البيت متمنيا لها الشفاء .

-قد أزورها غدا في البيت لأرى إن تحسنت حالها، وهو يمنّي نفسه أن يرسلوا في طلبه مجدّدا أو ألا تشفى حتى يتسنى له رؤيتها مجددا .

غادر الإمام الباحة إلى الشارع حيث كان ينتظره ضيفه نور الدين خارجا، توجها إلى بيت الإمام وهما يتبادلان العتاب، نور الدين يبدو في قمة السخط من الوضع الذي صار فيه، كيف لا، والمرأة التي قدم من أجلها خطبها الإمام أمام مرأى عينيه، وضع فيه ثقته فسرقها منه باستعماله نفوذه ومكانته، اختفيا في زقاق القرية بظلامه وخوفه الذي غطى كل زوايا القرية باتجاه بيت الإمام المجاور للمسجد خوفا من صوت سليمان الذي صار شبحا يسمعونه في كل وشوشة بالخارج أو صفير الرياح، يطاردهم في كل خطوة . الليل حالك في الخارج مليء بالخوف، استأذن أبي من سي محمود للانصراف، خرجنا لزقاق القرية البارد والمظلم نسير برفقة أبي في الزقاق. الخوف تسلل إلى داخله هذه المرة، هذه الليلة ليست كباقي الليالي، صوت الرصاص ودقات على الباب، يخاف علينا من الجنود إن التقى بهم ليلا، يخاف علينا من الإمام إن رفضت الزواج

منه، يخاف من أن يخطئنا سليمان بحجر طائش، أو سكين حاد قد يرميه من بعيد وفي أية لحظة، خطواتنا تسبقنا إلى المنزل.

الحمد الله أننا وصلنا بخير قال أبي وهو يغلق باب الباحة من الداخل بإحكام .

- القرية تصير مخيفة كل يوم أكثر من اليزم الذي يسبقه يا أبي

- وذلك المجنون الذي يلاحق الفرنسيين بالحجارة، كنا في السابق - على الأقل - ننعم بالسلم.

-سليمان ليس كما تقول يا أبي، إنها نخوة القرية هي التي دفعته.

أحسست بكلام أبي يخترق ضلوعي من الموقف الذي يكون قد تبناه بشأن سليمان، أشهر عليه سيفه فجأة، كأنه بدا غير راض عما فعله. مع طلوع النهار هز صراخ بعض السكان مسامعي :

- من فعل ذلك؟، بعض التمتمات ووقع نعال لأشخاص يركضون، الكلّ يجري في الأزقة، وآخر يكبر، ورجل يركض وهو يردّد بصوت مرتفع مرة ومنخفض مرة أخرى: الله أكبر.

أقف عند الباب ككل صباح أسترق النظر من ثقبه، غير أن الضجيج الذي يحدث خارجا، جعلني أنادي أبي كي يتقصى الوضع في الخارج . لحظة خروج أبي بعدما أخبرته أنّ أمرا ما حدث في القرية، كان أحدهم يقول بصوت مرتفع وهو يسأله: أنا أيضا سمعت الخبر منذ قليل .

غادر أبي وعاد بعد مدة قصيرة والحزن يعتري وجهه، جلس في باحة البيت ينادي أمي كي تحضر له الماء، ارتشف منه قليلا: مات إمام القرية، أحدهم قتله في فراشه أثناء نومه.

بنصف باب مشرع التقت عيناي بنور الدين وهو يتفحص المكان والبيت . في الوقت الذي هممت بوصده إصطدم بكتف سليمان الذي سقط أمام قدمي بعدما كان راكضا وفقد توازنه .إنصرف الفيل راكضا ينادي على كورنتان في حين دخل سليمان الى الباحة مذعورا .

الجزء الثالث عشر

"كان لا بد من الرجوع تلك الليلة بثأر يشفي الغليل لروح عمار صديقي، سلبوه حياته، ثم سلبوه بيته، حياته وهبها من الأول لهذه الأرض، وبيته الذي ارتسمت فيه معالم طفولته. أرادوه أن يكون لأطفال آخرين قادمين من وراء البحار، البيت هو الوطن الذي نحيا من أجله وأول أرض ولدنا فيها " أجبت ولد الجوهر عن سؤاله والنعاس يسلبني آخر الكلمات، كان لذيذا كما لم أنم من قبل مثل حلم أود الغوص فيه، غريب أمر هذه الأحلام، في السجن كنت أنفر من الفراش بسبب كوابيس المكان وخارجه، تنتابني لذة كبيرة بالخلود إليه.

صوت الحمامة العائدة في هذا الوقت لم يزرع في قلبي الرعب مثلما كان يفعل من قبل، عادت إلى عشها وسط الباحة.

أطلق ولد الجوهر عنان الغارق في النوم بعد أن أنهيت كلامي .

أشرق صباح الرحيل الذي عزمنا عليه منذ أن أعدمنا المعمّر، عشرة أيام من الاختباء، نترصّد الوقت المناسب للرحيل .

أخرجنا الأحصنة من الإسطبل، هكذا طلب ولد الجوهر على جناح السرعة بعد عودته من جولته الصباحية في المدينة .

- مكان جديد نغادر إليه إذن؟

- نعم سنتحرك باتجاه مولاي إبراهيم.

- هل أعدت البندقية لخالك ؟ سألته عنها عندما تفقد الذخيرة وخبأها تحت جلابيته.

- ربما أظفر بها أنا أفضل من أن يأخذها الفرنسيون عنوة عنه .

غادرنا البيت كما فعلت مع عمار في أحد الأيام وخلفناه وراءنا. شعور ما، يخبرني بأننا لن نعود إليه مرّة أخرى .

تحركنا باتجاه الجنوب حتى اختفت كل المدينة عن الأنظار. تلاشت وراء جبالها الحمراء، ذكّرني هذا الاختفاء بسفريّاتي من الغيشة إلى الغرب، وكيف كانت تختفي وراء جبالها قريتي وذهيبة وسليمان وذكريات الطفولة، كل سفر يحفر طفولتي بداخلي: سفر أمي التي ماتت في حجر أبي وسط باحة البيت أمام أعين الإمام وسكان القرية.

ألم ينفع معها ما كان يقرأ عليها هذا الإمام يا أبي... هكذا صرخت في وجهه عندما فرغت النسوة من غسل جسدها داخل السقيفة، واستعد الرجال لحملها فوق سرير خشبي إلى مقبرة القرية، ودفنت هناك قبل العيد بأربعة أيام. كنت أقضي وقتي كله بجانب قبرها أتلمس تربته، وأنام إلى جانبها طيلة يوم كامل أحيانا. قضيت الأيام الثلاثة في المقبرة إلى جانبها قانعا بدفء التربة التي كانت تغطي جسدها الصامت وكثيرا ما كنت أسقيها كلما جفت،

كما لو أن ذلك الماء سيحيي دفءها وكلماتها ونظرتها التي ما زلت إلى اليوم أبحث عنها في كل مكان، وفي كل العيون التي أقابلها لكن بدون جدوى.

أمسية يوم العيد عند عتبة البيت كان يقف أبي في شموخه، يحيط به رجال من القرية عهدته معهم في ساحة القرية يبدو متخلصا من حزنه، أحدهم يربت على كتفه قائلا:

الله يهنيك ويسعدك، تجاوزت الباب وأبي وأصدقاءه، وجدتني في باحة البيت، ما الذي تفعله في بيتنا جارتنا أم السعد وهي تعلم أن أمي قد غادرتنا إلى الأبد.

-لأنها لن تكون موجودة بجانبك سأكون أنا مكانها، أجابتني بعدما فضحتني صفرة عابرة كست وجهي من استغراب ما رأيت.

أحسست بالصدمة تهزني، ألمٌ استقر في صدري واقتلع قلبي من بين الضلوع، أحسست بأن الدنيا تتحرك من حولي، تعالت قهقهات أبي من خارج البيت وهو يقول لصديقه: كلاهما هامّ؛ العيد والشتاء، المرأة مثل الحطب هي أيضا توقد الدفء.

خلت أبي لن ينساها أيضا، خلتع مثلي، لكنه نسيها بمجرد عثوره على من توفّر له دفئا آخر.

الجزء الرابع عشر

لم يكن الليل مخيفا هذه المرة،كان منتشيا بالمعارك التي خاضها مولاي براهيم،التقيته صبيحة اليوم. لم أره منذ مدة طويلة قاربت الثمانية أشهر، وهو لا يعلم أنني سجنت ستة أشهر منها ، أعلمته بذلك صبيحة اليوم قبل أن يغادر إلى نصب كمين آخر، اشتم فيه رائحة الغضب كأنه لا يريد أن يوقف معاركه ليل نهار، ذاع صيت الكمائن التي نصبها في المنطقة مؤخرا.

ليلة البارحة عند وصولنا إلى الكتيبة لم نجده، فهو ينفرد أحيانا بعمليات سرية يسهر على تنفيذها بنفسه رفقة بعض المجاهدين المتمرّسين يستهدف بها جمع السلاح .

قتل عشرين عسكريا أو أكثر في كمين نصبه لقافلة فرنسية مدججة كانت متجهة من وهران إلى البيّض، لقد أحرق كل الشاحنات واستحوذ على أسلحتها، صفى الجنود، وعفا عن القساوسة رغم جامّ اللوم الذي صبه عليه أصدقاؤه، غير أنّه برّر ذلك بأن رجال الدين لا يحملون أي سلاح ولا يحبّون الحرب، أجهز صديقه المدعو الزرزي على من بقي حيا من عسكر، ثم جمعوا الأسلحة واختفوا كأن الأرض ابتلعتهم. بعد التحاقنا، تعرفت على أسماء القادة، ومواقيت النوم والخروج لجلب الطعام وأوقات التدريب.

أسندت إلي مهام الحراسة الليلية ابتداء من هذا اليوم بعد اجتماع. أتبادل وقت الظهيرة، مع ولد الجوهر المناوبة عند منتصف الليل. يخلد هو إلى النوم وأتكفل أنا بالمراقبة من أعلى الجبل إلى غاية طلوع النهار، أركز ما شدّد عليه مولاي براهيم: الأضواء الكثيرة، أصوات المحركات، وقع النعال على الأرض إن كانت، فالأرجح أنها لكتيبة عسكر تبحث في ثنايا الجبل عنا نحن الفلاقة، كما يلقّبوننا.

الضوء الذي تراه من بعيد ويبدو لك بأنه لا يتحرك فالأغلب أنه يتّجه صوبك، هذه النصيحة هي التي رسخت في ذهني ولفتت انتباهي إلى الحركة في الصحراء ليلا، أما بخصوص الرؤية وترصّد العربات فقد اكتسبت خبرة من أعالي جبل الغيشة. الحوامات والطائرات قلما تنفذ دوريات ليلا.

أضع سلاحي على ركبتَيّ وسبابتي لا تفارق الزناد، أختار الزاوية التي تسمح لبصري بتفقد كل الجوانب، أضواء المدينة تبدو من أعلى الجبل مثل قطعة صغيرة تكسوها حبيبات من الضوء المترامية في الأفق البعيد بالكاد تختفي وتظهر مجددا .

الرؤية في هذا الوقت مستحيلة.

القمر اختفى منذ أيام.

أول مرة أرى الظلام بهذا الحجم الكبير إنه مساحة سواد لا متناهية، اعتقدت أن للظلام حدودا فوجدت مكانا لا يعرف

الحدود .

- أرمي ببصري بعيدا وسط الفضاء باتجاه الشمال والجنوب والشرق، أتمعن جيدا لأحدّد شيئا وسط هذه العتمة التي تلقي بنفسها على الصحراء، فينهزم بصري مرة تلو الأخرى .

أبدّل مكان المراقبة متنقلا بين حجر وآخر يقابله وأتكئ بينهما بين لحظة وأخرى عندما أحس أن البرد بدأ يتسلّل إلى عظامي، أبقى بين صخرتين طيلة الليل رغم شعوري باختناق فالمكان الصخري يعطيني انطباعا بأني سجين حددت مساحة تحرّكه، رغم أنه يحميني من رياح الخريف الليلية الباردة. ما كان يبعث في قلبي انشراحا هو خيوط الشمس التي تتسلق من خلف الجبال مع كل فجر يوم جديد.

عقدنا اجتماعا آخر في الصباح ترأسه مولاي إبراهيم ومساعدوه الثلاثة: طلب منا إخلاء المكان مع كل صباح لنعود إليه مع غروب الشمس حتى لا نغدو فريسة سهلة للعدو،

حتى حياة الجبال لا تعرف الاستقرار؛ لأن الحرب تزرع الحذر والمخاوف. بعد أن ذاع صيت مولاي إبراهيم، أصبح الفرنسيون يقيمون له ألف حساب. أثناء مرور قوافلهم العسكرية القادمة

من المناطق المجاورة نحو البيّض، مع مرور الأيام وكثرة الكمائن التي نجحت كلها، غنمنا كثيرا من السلاح المتنوع، استبدلتُ

ببندقيتي رشاشا آليّا، وفضل ولد الجوهر الاحتفاظ ببندقية خاله، مع مسدّس من تسعة عيارات. الكمين الذي أقمناه في منطقة "الأبيض سيدي الشيخ" كان الأفضل من حيثُ المُعدات التي غنمناها: جمعنا الأسلحة وقفزت أنا من آخر شاحنة كان جنودها قد لقوا مصرعهم بعد أن أجهزنا عليهم، طلب مني مولاي أن أناوله المسدس.

-ربما الرشاش سيوفّر أكبر الفرص في الدفاع عن نفسك.

-سأحتفظ بالبندقية، ربما سيأتي يوم أعيدها فيه لخالي.

-ماالذي يجعلك تعيش على أمل إعادة بندقية لصاحبها في زمن الحرب؟

- *في الحياة نعيش على كثير من الآمال إن لم نحقق واحدة منها كان الموت شريفا، أن تموت ومعك قطعة من أهلك فهذا يجعل الموت أهون مما كنت تتصوره، بندقية خالي تحمل نفحات الماضي ولمة العائلة. أفضّل الموت وهذه البارودة بين ذراعيّ على أن أموت غريبا بين قطع سلاح لا أعرف أي أرواح أزهقت بطلقاتها.*

جمعنا الأسلحة في كيسين كبيرين وسلمناهما لمولاي إبراهيم

بعدها أضرم بعض رفاقنا النار في الشاحنات وغادرنا المكان نحو الجبل، في طريق العودة غادر الكتيبة رجلان منّا باتجاه الوادي أسفل السهب المحاذي للطريق، قيل لي فيما بعد إنهما تكفلا بنقل

الكيسين إلى منطقة مجاورة لترسل إلى العاصمة مع أكياس أخرى جمعت قبل التحاقي. يتزايد عدد المقاتلين في صفوفنا، بارتفاع مخزون السلاح، وتعطى لهم الإشارة بالانضمام مع تحديد العدد. لا يمكن أن يلتحق شخص ما بالحرب دون أن توفّر له بندقية، ويؤكد انضمامه بعد أن ينجح في اختبار الرمي وتحدّد نوع البندقية التي توكل إليه، شاب يصيب الهدف من أول طلقة وآخر يسقط بالتزامن مع خروج العيار الناري، وآخرون يسقطون الهدف بعد عدة طلقات يخضعون لتدريب مكثف وسريع لا يتجاوز يوما أو يومين يرتكز أغلبه على تعبئة الرشاش بالخرطوش.

انقسم المقاتلون كتيبتين بعد أن فاق عددنا مائة مقاتل، الأولى ترأسها مولاي إبراهيم، والثانية تكلف بها الزرزي، سرت أنا في كتيبة مولاي وبقي الزرزي متخذا من جبل قريب من جبل بونقطة مخبأ له ولجنوده . حتى لا يفضحنا عددنا الكبير قرروا تشكيل كتائب.

رصد أحد الفلاحين خبرا لكتيبتنا هذا الصباح تكلف بنقله شخصيا إلى مولاي؛ مفاده أن قافلة عسكر مكونة من خمس عربات تقبع بعيدا عن المدينة بعدما أصيبت إحداها بعطل ميكانيكي، فأبى باقي العسكر تركها؛ لأنّها كانت معبأة بالأسلحة وهي في مكان يخلو من المارة والثكنات العسكرية، طلب مولاي أن نجتمع بسرعة ودون تردد فبعض المعارك لا يحتاج إلى التخطيط لها كما وجب خوضها.

كان اجتماعا طارئا عقد في حلقة دائرية حيث وقف الجميع منتبها لكلام القائد مولاي الذي توسط الحلقة وخاطب الجميع وسلاحه على كتفه، نبرة حادة وجدية منوّها على ضرورة نجاح العملية :

-إن تحركنا مبكرا وصلنا إليها بأسرع وقت وأنهينا العملية دون خسائر في صفوفنا، إنه سباق ضد الزمن، أريد أن يتبعني خمسون مقاتلا، على أن يلحق بنا الآخرون بعد نصف ساعة فيحمون ظهورنا، ويصدون أي تعزيز عسكري يأتي من وسط المدينة.

كانت العملية الثانية بالنسبة إلي. أصبحت أخوض حياة جديدة بين البنادق بعدما خضتها في نقل الرسائل، رسالة كادت أن تودي بحياتي، رمت بي بين أسوار المحتشد، أما المعارك فمن شأنها أن تدفع عني الغيظ المشتعل بداخلي. سرنا في المنحدر الجبلي نازلين إلى طريق اجتنابي لأحد الوديان، أمشي ومع كل خطوة أعد القتلى من الجنود في رأسي، تتبدد مخاوفي كلما تذكرت أيام الزنزانة والضابط كويرنتان، المطرقة التي كسرت إصبع قدمي اليسرى غابت هي وبقي ألمها كلما استحضرت السجن وقضبانه، فتزداد خطواتي تسارعا، حصاني الذي لم أودعه سقط أمام ضريح سيدي عثمان يئن في الوادي يلفظ أنفاسه الأخيرة، الطلقة التي أراحه بها جندي كانت مريحة له تحمل النوم الأبدي، وتحمل حقد الفرنسي عليه أكثرمما يحمل لي الحقد .

خمس شاحنات من نوع "جي أم سي" تركن بجانب الطريق، وهي على بعد مائتي متر تقريبا، تحرك الرياح غطاءها فتصدر طقطقات.

الطريق خلف العربات لا تتراءى نهايتها. تمتد كخيط أسود على مد البصر، تمحو الرمال بعضا من جانبيها. رفع مولاي إبراهيم يده إلى السماء مشيرا بإصبعه إلى اليمين، فانقسمت الكتيبة نصفين، زحف نصف المقاتلين على بطونهم، وقطعوا إلى الجانب الآخر. نسير بجانبي الطريق فلا يسبق أحدنا الآخر في حذر وهدوء حتى بلغنا مكان الشاحنات. صارت بيننا، أحدثنا كماشة فلا يمكن لهم تصويب كل بنادقهم باتجاه واحد، كل شيء بدأ بسرعة، إشارة البدء كانت مجموعة من القنابل اليدويّة رماها بعض مقاتلي كتيبتي فاستقرت تحت الشاحنات. انبطح الجميع قبل أن يهتز المكان بانفجار عنيف اهتزت معه العربات وتطايرت معه في كل مكان من حولنا بعض الأسلحة وأطراف بشرية: يد يسرى كانت لواحد من عسكر العدو سقطت أمامي، ارتطمت بالأرض، وجثت انبثت فوق صخرة صغيرة كنت أسند عليها رشاشي.

انطلقت التكبيرات وتبعتها أصوات لطلقات متتابعة، أغلب جنودنا أصبحوا يحوزون على رشاشات، أرصد طلقة صوت البندقية فأدرك أنّ ولد الجوهر بخير فهو الوحيد الذي ما زال يحتفظ ببندقيته.

ترتطم العيارات أحيانا بهيكل الشاحنات وتصيب الجنود، فيختلف صوت الارتطام. لم يعرف العسكر بأي اتجاه يصوّبون، لأننا كنا نفرغ فيهم ذخيرتنا من الشرق ومن الغرب، فأطبقنا عليهم بعد أن فقد أغلبيتهم السلاح خلال صدمة الانفجار الأول.

صوت الحرب فيه كثير من الغضب: كنت أصرخ مع كل طلقة. صيحاتي غلبت على صوت الرشاش، فلم أعد أسمع صوت الرصاص. مع كل صراخ وقنص كانوا يتساقطون أمامي، كنت كلّما اشتد صراخي أحس بأن وجهي ينتفخ وسينفجر منه الدم الذي أحس بحركته داخل عروق وجهي وجبيني. وضعيتي المنبطحة تسمح لي بالتقاطهم واحدا تلو الآخر، أسقطت ثلاثة عساكر من العربة الأولى التي كانت أمامي مباشرة، العسكري الرابع لم أتمكن منه، كان رشاشي يحتاج إلى أن يرتكز قليلا إلى الأعلى لأن ذلك العسكري كان مصابا، وقد اتخذ وضعية الجلوس، أو أن أغير زاوية القنص، الخيار الثاني كان يحتمل أن تخترق رصاصة طائشة جسدي، رشاشي في حاجة إلى الارتفاع قليلا، وضعته فوق الذراع المبتورة وأرديت العسكري الذي كان داخل الشاحنة. انخفض معدل الطلقات من جهتنا بينما انعدم من الجانب الفرنسي صعد مولاي إبراهيم إلى الشاحنات رفقة ثلاثة مجاهدين، وأجهز على بقية الجنود المصابين حين حاولوا الانتقام. لم تستغرق تصفيتهم وقتا

طويلا، خمسون جنديا نزع عنهم مولاي إبراهيم سلاحهم، فتح بوابة شاحنة تختلف عن الأربعة الآخرين من ناحية الشكل، فتح بوابتها الخلفية وصاح بأعلى صوته:

-آن لها أن تنطلق من هنا. يبدو أنه آخر كمين لجمع الأسلحة.

الشاحنة كانت معبأة بأنواع كثيرة. كلّف كلّ جندي بحمل ثلاث رشاشات، اثنتان منها تربطان على الظهر عائدين إلى جبل بونقطة.

الانتشاء بالغلبة يكتمل عندما يصير سلاح العدو سلاحا لك، وتساعدك قطعة من جسده بالذات في القضاء عليه. هذا ما أدركته عندما صعدت إلى الشاحنة للتأكد من موت العسكري الرابع الذي كان مبتور اليد، في الحرب لعبة الحظ قد تحدد مصيرك وقدرك، وسوء حظك قد يفتك بك، وقد تصير أطراف الجثث سلاحا في يديك، يساعدك على النجاة بدل الفرار منها.

طريق العودة لم يكن نفسه طريق الذهاب، لا وجود لدرب معلوم في الصحراء، الاختفاء في عرضها هو ما يخفيك عن الأنظار، ودليلك في العودة إلى حيث تختبئ الكتيبة هو الجبال التي كنا نتقيد بها علامات اهتداء أثناء الذهاب والعودة.

استغرقنا ضعف الوقت للوصول إلى جبل بونقطة، ثقل الأسلحة أبطأ سرعتنا أثناء العودة هي كثيرة تكفي لمائة مقاتل جديد وربما لمائتين، لا يهمّ العدد، بقدر تهليلات مولاي إبراهيم. كان يردد

طوال الطريق مبتسما: لقد بدأت يا الخاوة، ولن تتوقف بعدما أُعطيت ما كانت تتنظر.

ردّدت على مسامع ولد الجوهر بعدما دنوت منه:

أي شيء سيوقف هذا الرجل ؟

-الآن القضية هي التي تصنع الرجال بعدما صنع رجالٌ منها قضية.

-هي من الأول قضية عقّبت عليه وأنا أدس يدي في جيبه لانتشال قارورة الماء.

-القضية لها صوت مثل الذي سمعته عند العربات قبل قليل، الأحزاب التي رافعت للقضية سابقا لم يسمع لها صوت، الجيش الذي قدم إلى بلادنا قبل قرن لا يمكن أن يغادر بورقة معتوهة تندد بوجودهم بيننا، تناول من يدي قارورة الماء، ارتشف قليلا، وعدنا إلى أحاديث أخرى: يحدثني عن خاله وأحدثه عن سليمان والقرية وما فيها. تضاعف عدد جنودنا في الجبل. صارت أعدادنا كثيرة بعد يوم واحد من عودتنا من تنفيذ الكمين، صرنا مائتا مقاتل بعد أن التحق آخرون من مدن مجاورة، وآخرون من شرق الوطن، ثلاثة رجال من باتنة وصلوا مع آخر ثلاث قطع سلاح، تحولت الكتيبة إلى جيش.

فجأة بعد أن كانت تكبر شيئا فشيئا، مولاي إبراهيم قسم المقاتلين مجموعات عديدة يساعده بعض من رفاقه في ذلك، الزرزي عاد لينضمّ من جديد إلى مولاي إبراهيم، سهلت علي مأمورية الحراسة ليلا بين الصخرتين، لم أعد أترصد تحركات العدو من الاتجاهات الثلاثة كما كنت أفعل. اكتفيت بجهة الشرق، وأوكلت مراقبة الجهات الأخرى إلى ملتحقين جدد، تشغلني أضواء الشرق اللامعة من المدينة البعيدة، أترقب شروق الشمس القادم من قريتي، وحده الشروق هو الذي يعيد إلي صباح القرية الهادئ، قبل أن تعكره قوافل العسكر، زيادة عدد المقاتلين في صفوفنا أراحتنا من تأدية أكثر من مَهمّة واحدة غير أنها زرعت بيننا الجوع بدل الخوف، لم تعد تكفي رغائف الخبز التي كان يحضرها لنا عمي أحمد راعي الغنم المتنكّر. كلّ صباح نقتسم الرغيف بين ثلاثة مقاتلين بعدما كنّا نقتسمه بين اثنين، نتذوق لقمة من الرغيف وكوبا من القهوة التي يعدها ولد الجوهر داخل مغارة الحجر، تصير القهوة جاهزة عندما يخرج لالتقاط أنفاسه من دخان الحطب الكثيف، ارتفاع عدد المقاتلين بقدر مازادنا قوة، زادنا جوعا أيضا، في الكثرة قوة وجوع . أفرغ من الحراسة وأنا أتضور جوعا مع كل صباح، أستمع إلى صوت أمعائي وهي تتأسف على نصف رغيف الليلة الماضية، فهو لم يُلبِّ حاجتها، أستند إلى مجموعة الصخور،

وأنا في طريقي باتجاه المغارة، لا أقوى بسهولة على الوصول إليها من برد الليل الذي نهش عظام كتفيّ وقدميّ، أنعم بدفء الجمْرات التي أعدت لطهي القهوة وبدأت تحتضر، أستلقي بجانبها قبل أن تزهق روحها لرماد الكانون عندما تصير الشمس قرصا في منتصف السماء أعود إلى الكتيبة. مولاي إبراهيم دائما رفقة ثلاثة من رفاقه، أصبحوا أربعة بعد أن التحق الزرزي هذا الصباح بمن معه من مقاتلين. في ساحة التدريب أسفل سفح الجبل يتدرّب المقاتلون الجُدد على التصويب الدقيق وآخرون يحملون السلاح لأول مرة دون ذخيرة ليلتحقوا بحقل الرماية بعد أن يتهيؤوا لذلك. نزلت إلى ساحة التدريب الملتفة بأشجار الصنوبر، اكتشفت المسؤول عن تدريب المقاتلين الجدد، خضعت لاختبار التصويب هذا الصباح، كان الهدف جذوع أشجار صغيرة، اكتشفوا أنني بارع في التصويب بعد أن أسقطت خمسة منها من خمس طلقات. بين حين وآخر أستأذن مسؤول التدريب للنزول إلى الوادي. وافق شريطة توخّي الحذر، نزلت إلى الوادي الممتد إلى الجنوب، عريض من الجانبين، لم يكن أجرد تماما؛ فبعض أشجار الصنوبر القصيرة تكسو طرفيه وتفرش الحلفاء مجراه. اكتشفت أن الوادي يعج بالأرانب البرية، كنت من قبل في الغيشة بارعا في صيدها قبل التحاقي بالزاوية، وحتى أثناء وجودي بها اصطدت أرنبا واحدا لم يكن يسمح

للمريدين بإطلاق النار ما عدا الخليفة، قدسية المكان يجب ألا تعكر بالبارود، وهنا لا يمكنني إطلاق النار بالوادي لأمان الكتيبة، وبين القدسية والأمان بنادق تعتكف في السلام داخل القصر، وأخرى تلتزم الأمان في الجبل. عدت أدراجي إلى سفح الجبل حيث الكتيبة بعد أن قضيت فترة بالوادي، والجوع يعصر أحشائي ويمزّقها. قصدت مكان الحراسة، طلبت من ولد الجوهر أن يناولني بندقيته، أصرّ على معرفة السبب. أخبرته بما رأيت في الوادي، وما عزمت على فعله.

-هل حصلت على إذن بالصيد من القائد؟

- لا، لم أفعل .

- كيف ستفسر لهم إطلاقك للنار فهم سيسمعون دوي الرصاصة في كل حال. سأقول لهم بأنني أطلقت النار على خنزير بينما كنت أقضي حاجتي بالوادي، الجوع يقطعني يا رجل. قطعة الرغيف تلك لم تعد كافية .

- تتناول أنت اللحم وهم يتضوّرون جوعا؟ ردّ علي مشيرا
- إلى بعض المقاتلين الذين كانوا مستلقين عل الأرض من تعب التدريبات. كبح شهيتي ولد الجوهر بهذا الموقف الذي وضعني فيه، لكن سرعان ما أدركت أنني سأندم في المساء إن لم آخذ بنصيحته. ناولني البندقية، ونزلت بمنحدر جانبي لساحة التدريب مدة قصيرة

فقط، عدت بأرنب متوسط الحجم خبأته في كيس الخرطوش، وعدت إلى الأعلى أقصد الصخرتين حيث ولد الجوهر في مناوبته.

الجزء الخامس عشر

وقت المناوبة عند الصخرتين، أحرس ليلا كالعادة وأحضر الأرنب لطهوه صباحا، هكذا هو برنامج الليلة، التفكير في وجبة الغد يعطي دافعا للسهر برغبة أكثر.

أتمعّن في النظر من جهة الشرق دون أن أرى شيئا، العتمة الموغلة في عينيّ تسافر بروحي نحو القرية، عينان مفتوحتان عن آخرهما فوق الجبل، وروح تراقص الماضي بين أزقّة البيوت، فأستحضر ذهيبة الوديعة، حبيبتي التي جمعت بيننا كل حمامات القرية وابتسامات الوادي، أفرغت لها ما بجوفي يوم وافق عمي عيسى على زواجي منها، لم أكن بحاجة إلى البوح؛ فقد كانت تقرؤني من عينيّ، تماما مثلما أفهم شعورها من طأطأة رأسها كلما تصادفنا، الحرب والحب متشابهان؛ الأولى تجري في مكان وتنتهي بعد زمن والثاني يجري بين القلب وصاحبه والمكان والشوق والزمان، ولا ينتهى إلا باللقاء أو الموت. أنظر إلى الأرنب الصغير يسبح في دمائه أمد يدي إليه حتى أبدأ

في إفراغ أحشائه، أتذكر جوع الجنود الذين يتقاسمون الرغيف، يصحو بداخلي الضمير فيكبح أنانيتي، ألقي الأرنب بمكانه وأعود إلى التمعّن من جهة الشرق.

هو أوّل أرنب أصطاده منذ مغادرتي الزاوية، بنادقهم لا يستعملونها إلا في الصيد، بعد كل طقس كنا نمارسه في حضرة الخليفة، نادرا ما يتسلل النعاس إلى عينيّ. أتسلل خارج أسوار الزاوية، في الأول كنت أفعل ذلك وحدي وبعدها صرت أرافق شيخا يستهويه التسكع ليلا، الشيخ الذي كنت أرافقه لم يكبح شهيتي في التجوال ليلا، أعطاني الشجاعة التي كانت تنقصني حتى أتوغل أكثر في ظلام هذه البادية، كان لا يشبه الآخرين، صوته الملائكي ورائحته العطرة تطفو على النفس، أتخلص بالداخل من صور الطقوس التي صرت أجد كل الأعذار كي أتغيّب عنها، كنت أرى في بنادقهم وكثرة عددهم خلاصا للقرية .

-اييه المخلّصين.

- سيدي خلصني"،عبارة كانت تُردّد على مسامع الشيوخ، ولطالما اعتقدت أنهم سيخرجون لفك الحصار عن الغيشة.

أسئلة كثيرة متعبة تستريح بدماغي، متى سيخرجون إليها ؟

-ألمّا يئنِ الأوان ؟

-ما الذي يدفع هؤلاء لإفساد حياتهم، يزجّون بأنفسهم في حرب فيخسرون حياة الترف والسلام.

أنسى كل الأسئلة التي تطرح بداخلي كلّما دعاني الشيخ للخروج معه ليلا، هذه المرة على متن الأحصنة، عندما أكون برفقته لا أتسلل من فوق السور من الجهة الشرقية لباحة الزاوية. خرجنا من الباب الرئيسي توغلنا في ظلام البادية جنوبا واختفت وراءنا طقوس الخليفة ليلتها.

-لم نقبّل يد الخليفة الليلة في نهاية الطقس؟

-لا يهم، فعلنا ذلك في البداية، أجابني الشيخ وهو يشير إليّ برأسه أن أسرع قليلا.

وصلنا إلى قصر كوردان من جديد، ربطنا الأحصنة إلى شجرة بمدخل القصر.

-أعتقد أنك لا تحبّذ فكرة تقبيل يد الخليفة .

تلعثم لساني وتبعثرت الكلمات في حلقي.

- أضاف قائلا :

التقبيل ليس سوى تقوية لرباط بينك وبين المكان. الله في قلبك وليس في يد الخليفة.

-فلم نفعل ذلك يا سيدي ؟

صمت الشيخ قليلا، أحسست بسؤالي هادما لكل القبل التي رسمهاعلى يدي الخليفة خلال السنوات الماضية.

-دعك من كل هذا، أنت تحب قصر كوردان لنتجول فيه قليلا، ساحة القصر تكفي كل سكان الغيشة والقرى المجاورة له أن تقيم بداخله، بإمكانهم أن ينصبوا خيامهم داخله، بإمكان البعض أن يشغل غرف القصر الكثيرة .

-الغرف للأشراف يا بني، هذا القصر لم يُبنَ كي تنصب داخله الخيام، بني للهروب من حياة الخيمة.

كنت أحترم الرجل كثيرا، لم أفكر أبدا في إغضابه، لكنني تلك الليلة قرّرت أن أقول ما لا يحبّه، لم يعد بإمكاني الصمت أكثر، الصمت قاتل بطيء.

أنت محق يا سيدي، نميز الأشراف من العامة من البيت والخيمة، الحصان والبندقية، العباءة كذلك تساعد في التمييز بين الناس، تعلمت هذا في قريتي وعشته هنالك، لا شك في أنّ الأعراف لا تختلف بين "عين ماضي" و"الغيشة"، يختلفون في الحياة، ويشتركون في الحفرة التي يأوون إليها عند الموت، الحزن فقط عند البسطاء أعمق؛ فهم يدفنون موتاهم في الغابة بعيدا عن المنازل، والأشراف يقيمون لها أماكن في ساحة القصر.

رميت إليه بسؤال آخر حتى أتحاشى غضبه:

بالمناسبة يا سيدي لقد تذكرت شيئا، حدثتني عن مقبرة العائلة، أين هي ؟

- *هي في ذاك الركن من ساحة القصر ربما نعود إليها المرّة القادمة نهارا.*

دخلنا إلى ساحة القصر وقفنا قليلا، انتابتني رعشة في التقدم أكثر، أشعل الشيخ مصباحا زيتيا أنار من حولنا الطريق قليلا، سرنا إلى اليمين داخل الساحة المهجورة، صعدنا الأدراج إلى الطابق العلوي أو طابق الحريم كما قال الشيخ. وصلنا إلى بهو طويل تطل عليه عشرات الغرف التي كانت مغلقة، كانت نظراتي خاطفة إلى حيث يصل نور المصباح الزيتي، رحت أدقق النظر في الجدران التي تبدو مختلفة في بنائها عن الزاوية، أتلمس بحذائي أرضية البهو التي لم تكن تربة أو شيئا كهذا، كانت الأرضية ملساء تتراقص داخلها أنوار مختلفة الألوان كلما تمايل المصباح يمينا وشمالا في يد الشيخ وانعكست أنواره على سطح الأرضية. وصلنا نهاية البهو ونزلنا من الجهة الشمالية في الركن البعيد عن ساحة القصر، تراءت لنا كتل بيضاء متجانسة الأشكال مطروحة على الأرض تبدو أشبه بعباءات بيضاء مترامية، أو أشباح تقيم تجمّعا في هذا الوقت من الليل، أدار الشيخ المصباح بالقرب منها، فإذا بها قبور مبنية مزيّنة بقطع من الرخام الأبيض. تملّكني الرعب، ولم تعد لي رغبة في اكتشاف أركان

القصر المتبقية، وأصررت على الخروج، فغادرنا المكان بعد أن هدّأ الشيخ من روعي.

- كان عليك ألا تخاف، ليس للخوف مكان هنا، فهذا القصر بُني على حبّ.

- كيف ذلك ؟ لم أفهم ما ترمي إليه .

- هذا قصر سيدي أحمد عمّار التيجاني - تغمده الله برحمته الواسعة - بناه بعد أن عاد من منفاه بفرنسا سنة 1871 .

- الذين يذهبون إلى المنفى لا يعودون منه، لم أعرف المنفى، لكن الناصر عاد من الثكنة ذات مساء جثة هامدة.

-ألم أقل لك إن الأشراف لا يشبهون الآخرين. نُفي سيدي إلى فرنسا، وبقي تحت الإقامة الجبرية في مدينة موناكو الفرنسية حيث تعرف على فتاة اسمها أوريلي بيكار، كان والدها دَرَكيّا، وكانت هي تشتغل في معمل لخياطة القبعات؛ تخيط قبّعات المدير العام للبريد الفرنسي "ستينا كارس" في باريس، وأصبحت مقرّبة من زوجته كثيرا، وبعد سقوط العاصمة الفرنسية باريس في يد الألمان انتقلت الحكومة الفرنسية إلى مدينة بوردو، فأخذت زوجة ستينا معها أوريلي الفتاة، وكلفتها برعاية الحمام الزاجل الذي كان يستعمل في نقل البريد وقتها، ومن جميل الأقدار أن إقامة أسرة "ستينا كارس"

كانت في الفندق نفسه الذي يقيم به سيدي أحمد عمّار التيجاني، بعد أن طلب هو تحويله إلى مكان محترم ولو على حسابه.

-كيف يسمحون لمنفي أن يقيم بفندق مريح؟ أوليس المنفى نوعا من العقاب المسلط، لأنه يقضي بفصل المعاقب عن أهله ونقله إلى مكان بعيد أو مهجور ؟

- الأمر الأهم هو أنهم أبعدوه عن أهله وقت الحرب، فالفرنسيون لا يريدون لهؤلاء مثل سيدي وكل الذين كلمتهم مسموعة ويمكن أن يؤثروا في الشعب، أرادو أن يتفادوا ثورة شعبية بالمنطقة، فأرسلوه حيث تسهل عليهم مراقبته، يقال إنهم أخذوه بالقوة، ولكن عند عودته سمعته أثناء تأديته صلاة الفاتح عندما كنت صغيرا يخبر الناس الذين كانوا يبكون فرحا بعودته، أنه تعرض لخيانة من أحد القادة الفرنسيين ممن كان يعُدّه صديقا له، فقد دعاه إلى باريس وتمّ إبقاؤه هناك، لولا أن أحبّته أوريلي، فسمح له حبها بأن يعود إلينا سالما.

كان الشيخ يتكلم عن سيدي أحمد عمار التيجاني مستحضرا القصص والمآثر التي عاشها في فرنسا. اغرورقت عيناه بالدمع. عندما وصلنا إلى مربط الفرسين وقع منه مفتاح فالتقطته على أن أعيده له بعد أن ينهي كلامه، استدار إلى جهة القصر:

-هذا قصره، بناه لـ"أوريلي" حتى تنسى فرنسا، تركت أهلها وقدمت إلى هذه الصحراء لتعيش بيننا، ليس هذا فقط فلقد غيرت اسمها، فأصبحت "لالا يمينة" بدلا عن "أوريلي".

انطلقنا عائدين إلى الزاوية، وكان الوقت متأخرا ولم يبق الكثير حتى تزهق خيوط الفجر هذه الليلة. في طريقنا كانت الأسئلة بداخلي تتدافع محاولة الخروج فأمنعها، أختار السؤال كي أطرحه على الشيخ، فيتبادر لي سؤال آخر، لكن لم أعرف من أين أبدأ، دوامة من الأسئلة تسبح في الغموض.

-أعلم أنه قد تملكك الفضول يا بني، لكن دعنا نخلد إلى النوم، وسنكمل غدا إن أردت.

عدنا إلى الزاوية، اتجه إلى جناح المشايخ، واتجهت أنا إلى جناح الطلبة.

انبزغ الفجر عند الصخرتين، هممت بالوقوف لأتفقد ولد الجوهر؛ فقد حان وقت مناوبته، وكي أنال قسطا من النوم داخل المغارة الحجرية، لم أقم بتحضير الأرنب للطهو، فليلة البارحة كانت كفيلة بصرفي عن فعل ذلك، قدِم ولد الجوهر، وانصرفت أنا إلى ...

الجزء السادس عشر

كان سليمان مختلفا ذلك اليوم عندما وقف في باحة البيت مُلطخا بدم الإمام وهو يناديني بأعلى صوته:

-ذهيبة يا ذهيبة، لقد خلصتك من الإمام، لم يعد بمقدور أحد أن يطلبك للزواج من اليوم، لن تكوني سوى للعرج، ثم جثا على ركبتيه وسقط على بطنه.

توجهت مسرعة إلى غرفة والدي أخبره حتى يتصرّف في الأمر، عارضت أُمَّا يامنة فكرة بقائه متخفّيا في بيتنا، غير أنها وافقت بعد إصرار أبي. لم يرفض لها طلبًا في السابق، لكن، عندما تعلق الأمر بحياة سليمان لم يبد اهتماما بموقفها.

نام اليوم الأول في القبو يغوص في جراحه، كما ينام فيه منذ قرابة العام من موت الإمام، أصبح أكثر اطمئنانا من الماضي، لا يعلم ما الذي حلّ بالقرية بعد ما فعله، صار الجنود أكثر عددا من السكان، وبيته صار مقرّ إقامة لـ"كويرنتان"، كان مطمئنا في نومه، ربّما وجد في ظلام القبو سلاما لم توفره أزقة القرية من مطاردات الفرنسيين وبعض السكان، وربما سيصير الأمر أفدح ويطلبه أهل الإمام.

نظفنا جراحه البسيطة، ودماء الإمام التي لطخت وجهه، أردت أن أعرف حال سليمان داخل القبو كما كنت أفعل دائما خلال الأيام الماضية، ومنذ قدومه إلينا، حضرت له رغيفا من الخبز وقطعا من الجبن وكوبا من اللبن. نزلت إليه رفقة أُمًّا يامنة عبر الدرج الذي يتوسط أرضية السقيفة. لم يكن يُسمع أنينه من باحة البيت كما في الأيام الماضية، ربما الأغطية التي تدبّرها أبي من عند صديقه هي التي خلصته من برودة القبو.

بدأ في الأكل بشراهة ذئب جائع، تغيرت طباعه كثيرا، أصبح شرا حتى في أكله، كانت نظرة أُمًّا يامنة إليه نظرة إشفاق، واللقمة تلتصق بلحيته الكثيفة، ولا ينال فمه منها إلا القليل، فيمسح لحيته بكفه ويمرّر عليها لسانه.

نزل عمي عيسى إلى القبو واضعا سبابته على فمه في إشارة منه لسليمان بالتزام الهدوء، في الوقت الذي هزت فيه محركات الشاحنات وأصوات أقدام العسكر الزقاق الذي يطل عليه بيت عمي عيسى، ساد صمت رهيب داخل القبو، قرع الباب وتبعه صوت أحدهم وهو يصر على كسره، الضابط كويرنتان أصبح يقيم في القرية، وزاد عدد العسكر فيها منذ أن قتل الإمام، المارة في الشارع كلهم فرنسيون بعدما اختفى سكان الغيشة داخل بيوتهم وصار خروجهم لا يقبل إلا بإذن من الضابط، هكذا صارت الحياة

بعد أن وضعت الحواجز في كل منافذ القرية شمالا وجنوبا، وحتى العائدون من الحقول يخضعون لتفتيش أكياسهم وجيوبهم؛ ويرمى كل شيء من أغراضهم أرضا، إلى أن يتأكدوا من أنّها خالية من أي سلاح.

بعد أن ساد الهدوء في الشارع صعد سليمان الدرج الخشبي القديم من القبو إلى السقيفة عبر باحة البيت وأخذ يسترق النظر من صدع الباب، فلم تعثر عيناه إلا على عساكر يطوقون القرية من كل منافذها. تتراءى عبره ربوة بيته العشرات منهم معسكرين فوقه.

-لا بد أنهم يريدونني بأية وسيلة، ردّد سليمان متمتما، وعاد إلى السقيفة، ونزل إلى القبو. كلما أحس بالأمان خارجا، ترك القبو واسترق النظر من الباب، مركّزا على الربوة كأنه يريد لبيته ألا يطاله الفرنسيون. الضابط كويرنتان يتجول في القرية رافعا رأسه إلى السماء، يضرب بعصا صغيرة على كف يده كلما كلّم أحدا، أو سأله عن سليمان: تغيّرت معالم الحياة في الغيشة وصار التجوال محظورا، ومن يقوى على الوقوف في وجه الضابط.

حتى النساء عندما يقفن في زاوية التفتيش ينزلن النقاب عن وجوههن فيرى الضابط ما لم يره أحد من السكان .

ربت عمي عيسى على كتف سليمان وكأنه يعرف أن ما يدور بداخله إما حنين شدّه إلى البيت، أو انزعاج من وجود الغرباء فيه.

-لست وحدك يا بني، لا تحاول مغادرة البيت، عددهم كثير بالخارج، وهذه المرة لن تنجو إن أقدمت على فعل شيء.

-رد سليمان: حتى البقاء في البيت لن يغير شيئا، والخروج منه لن يغير شيئا أيضا، على الأقل الموت من أجل من أحب وحده ما يجعلني أموت مقتنعا.

- ليست لك عائلة هناك.

- حدّق سليمان في عمي عيسى قائلا بنظرة حزن يشوبها غضب كثير، وقد رفع رأسه عن الباب بعدما كان
يسترق النظر:

-أريد أن أموت أمام منزلي هذه المرة، ليس في يد المرء إلا نخوة تجعله يعيش في سلام، أو يموت مقتنعا ما دامت القضية أرضا تسلب، وبيتا يغتصب، إني لأرى زوجتي في قبرها الآن وأراها في البيت تفرّ من الضابط وهو يحاول اغتصابها.

-لكنها ميتة يا سليمان وبيتك فارغ، أجابه أبي .

- الأمر سيان يا عمي عيسى، كانوا سيطردوننا من البيت ويتخذونه مركزا لإقامة قائدهم حتى لو لم أكن قاتلا، كنت سأدافع عن بيتي فأقتل الضابط، ويتمكن الجنود مني رميا بالرصاص .

ربت أبي على كتف سليمان مهدئا من روعه، وحثه على الرجوع إلى القبو، فهو في أشد الحاجة إلى الراحة، بينما يتبين له أمر بيته وما إن كان الجنود يقيمون بأعلى الربوة فقط، أو فعلا يكونون قد اقتحموا المنزل.

غادر أبي بعد الظهيرة، وعاد بعد العصر راكضا إلى البيت، وهو الذي اعتدته شجاعا رغم شيخوخته التي رسمت معالمها في حركته، حتى عندما تمكنت الشيخوخة منه، لم يكن يحس أنه يكبر، رعشة يده التي لم تكن تقبض على الكوب جيدا، وكان يوقع بسببها فنجانه، كان يصدقني عندما أخبره أنني أنا السبب، لم أرد له أن ينهار ويغادرنا مبكرا، كنت أريده أن يظل مقتنعا أنه ما يزال قويا رغم وهنه الذي بان في تجاعيد وجهه.

ركض اليوم من ساحة المسجد إلى البيت، استعاد أنفاسه بعد مدة طويلة من العذاب في تنهّده، والسعال الذي تبعه، حاولت معرفة السبب وراء ركضه وهلعه.

- الفرنسيون يا ابنتي يواصلون حشد العسكر إلى القرية، الضابط كويرنتان يقيم بمنزل سليمان .

أشرت إلى أبي أن يخفض صوته خشية أن يسمعه سليمان وهو في طريقه لاستراق النظر من الباب، فيقرر الذهاب إلى الربوة ويقع في المحظور ويجرّنا معه إلى الهلاك .

أكمل حديثه بعد أن تأكدت من وجود سليمان بالقبو:

الضابط يقوم بتفتيش المنازل كما قام باقتياد فتاتين إلى الربوة بعدما ربط الجنود شقيقيهما ووالدهما، دخل بيتهم.

سترك يا الله، لا أريد أن يستبيحوا عرضنا بعدما استولوا على الأرض، لم يكمل أبي كلامه حتى أحسست بدقات قلبي ترتفع. صرت أسمع خفقانه في أذنيّ، تملّكني الذعر وتبادرت إلى ذهني عدّة حلول للهروب من مخالب الضابط وحاشيته، الرحيل من الغيشة لم يعد متاحا، والبيت لم يعد آمنا، ربما الاختباء مع سليمان في القبو أكثر أمانا وخلاصا لي، ما الذي قد يفعله ضابط بفتاة في مثل عمري، لا بد من الاختباء مع من يرونه مجنونا، وجودي أمام رجل داخل القبو ليل نهار أمر يخيف قليلا لكن ليس سليمان، كلمة السر بيننا هي حبنا للعرج؛ هي التي ستوقف جنونه إذا ما غاب عنه عقله في لحظة ما.

عاد أبي للخروج من البيت في اليوم الموالي بعد أن ناداه أحد أصحابه ليعلمه أن الضابط أرسل في طلب الجميع .

قلما رأيت أغلب سكان الغيشة يجتمعون، آخر مرة اجتمعوا فيها يوم ماتت حبيبة زوجة سليمان، صعدنا لنهدئ من روعه، أغمي عليه إلى الفجر، وبقيت معه رفقة أمي وأبي بالمنزل، استيقظ في الصباح، خرج ليحضر الدفن، ولم يعد إلى بيته إلا بعد أسبوع

يحمل انكساره على لحيته التي زادت طولا، وغطت ذقنه. اجتماع الأمس كان حبّا وزّعه كل سكان القرية على سليمان في شكل دموع، اجتماع اليوم يحمل فيه الناس مخاوفهم لدى الربوة عند الضابط. اااه، كم تغيّر الكثير بين الأمس واليوم .

غادر البيت متوجها إلى الربوة، هو لن يخبرنا بما سيحصل هناك كما اعتاد على إخفاء الوقائع التي تحدث بالغيشة، يخاف على أمي من خوفها، ويخاف علي من أن يقتلني فضولي وأنا التي تسللت ذات ليلة إلى بيت سليمان عندما أتوا بسرج لعرج ملطخا بالدماء، قرّرت المُضيّ في أثر أبي إلى حيث يجتمع الضابط بالسكان، منعتني أُمَّا يامنة وأصرت على ألا أفعل، توسلت كي لا أخرج مخافة أن يتعرض لي العسكر، أقسمت بسيدي الناصر، وسيدي طيفور واستحضرت كل أسماء شيوخ الزاوية حتى لا أخرج، تمعنت في تفاصيل وجهها، وأبحرت في عينيها المغرورقتين عند الباب وهي تستوقفني، وأنا متنكرة في ثياب أبي، سمعت أنين أمي في عينيها على أختي زهرة فجرحها لمّا يندملْ؛ فبعض الآلام لا تُنسى، نسمع صوتها في عبوس وجه صاحبها.

عدلت عن قراري، قبلت جبينها وعدنا إلى الغرفة، حملت فنجان القهوة ورغيف شعير، ونزلت إلى القبو نتفقد حال سليمان. بقيت أنا في باحة البيت أسترق النظر، وأتجسس على المارة، الزقاق فارغ

من البشر مليء بالشر، كأن القرية باتت خالية من السكان، الغيشة الجميلة الهادئة في لحظة بائسة تتحوّل إلى غول مخيف نسمعه في صمت الزقاقات، باتت تقف على حافة الصمت الأبدي، الأماكن التي يغادرها قاطنوها تتحول ذكرياتها إلى وحش قاتل، كلما زاد الفراغ زادت زوايا المكان ألما.

الغيشة التي كانت تذكرني بلعرج ليست هذه القرية التعيسة التي باتت شوارعها مخيفة، الغيشة التي أحبّها أرى فيها وجه لعرج وفي ركض سليمان ووجوه المارة، أراه في كل سنابل القرية وحمامها الأبيض، قريتي ما عادت هذه التي سلبت ضحكاتنا الهاربة بين حقول الوادي وطمأنينة الأولياء الصالحين، قريتي ما عادت هذه التي سلبت منها الحياة، وسكن الخوف مفاصلها، أكانت ستبقى آمنة لولا أن قتل سليمان إمام القرية ؟

-أما كان سيحدث هذا لو لم يرحل لعرج للجهاد ؟

أي شيء يحرك الضابط في القرية، رحيل لعرج أم موت الإمام؟

لم يطل أبي البقاء في الربوة، عاد بسرعة إلينا، ربّما الاجتماع الذي طلبه الضابط لم يكن إلا مجرد إملاءات جديدة، أي أوامر تبقّت لديه بعد أن أقفل مداخل القرية ومخارجها؟ منع صلاتي العشاء والفجر بالمسجد.

دخل أبي إلى باحة البيت يسدل الصمت على وجهه، لم يكترث بأسئلة أُمَّا يامنة كأنها تتحدث إلى شبح هارب، طأطأ رأسه في حزن ارتسم بمشيته المتراخية، اتجه إلى السقيفة دون أن يكلّم أحدا، أحضر عودا خشبيا آخر، وضعه ركيزة للباب، كأنه لا يريد له أن يفتح، رأيت الخوف في دعم أبي للباب عندما بدأ في تسمير قفل الباب من الداخل كأنه لا يريدنا أن نخرج أبدا.

تقدمت باتجاهه سائلة :

-ما الذي يخيفك يا أبي ؟

-هذه الأيام لا نعلم ما الذي سيحصل، دعوهم يعتقدون بأنناغادرنا القرية، أو أن هذا البيت غير مأهول من الأول .

- لا عليك يا ابنتي ربت على كتفه منهية عبراته التي أطلقها مثل طفل خائف يظهر في ارتجاف حلقه أثناء الكلام، ودخل إلى غرفته، لحقته أُمَّا يامنة تحضر له قهوة المساء.

في اليوم الموالي حاصر العسكر زقاقنا وبدأت ركلة قوية تهز الباب يتبعها صوت أحدهم كان يتكلم بالعربية:

-افتح الباب.

- فرنسا لا تريد أن تؤذي أحدا إلا إذا أذيتم أنفسكم.

كل ما عليكم فعله هو الانصياع للأوامر، فرنسا تعطي الأمان لكل منصاع ومطيع .

كلمات الأمان ليس لها معنى بما نعيشه من خوف في الداخل

- اللعنة على هذا الأمان ردّد أبي وهو يطلب من أُمَّا يامنة أن تنزل إلى القبو.

كلمات ليس لها معنى واصل ترديدها القايد الذي كان يرافق الفرنسيين. نظرت إلى أبي مذعورة، وقد اعترى وجهه اصفرار شديد، الركلات تزداد قوة ولم يعد الجذع الخشبي يجدي نفعلا أمام نعال الجنود، ربما لن يصمد لأكثر من خمس ركلات أخرى، ولم يسكت القايد في إطلاق التهديدات من وراء الباب، وأبي يتمتم: الكلب ما فيه الأمان. لم يكن بوسعنا فعل أي شيء سوى تثبيت الجذع حتى لا ينفلت عن الباب، آمالنا في النجاة علقتها على الجذع أكثر من أي رجل بالقرية، ما يقوم به هذا العود الخشبي اعتبرته صمودا لأجلنا، هو يبدي موقفا عكس القايد الذي يساعدهم في كسر الباب. تمكن العسكر من اقتحام البيت، لم يطلقوا الرصاص علينا، ولم يركلوا أبي مثلما يفعلون في شوارع أفلو وفي وسط المدينة. تقدم القايد نحوي بعدما أمسكني الجنود من ذراعي، اكتشفت أنه والد نور الدين زوج أختي زهرة - رحمها الله -، وضع يده خلف رأسي ورفع شعري إلى أن لامس به وجهي. فتش العسكر الغفتين وتأكدا من كل زاويا البيت ثم عادوا ليخبروا القايد بأن لا أحد هنا .

حرك القايد رأسه الى الأعلى ثم الى الأسفل ثم قال :

- تختبئين هنا أيتها الجميلة، لنرَ ما سيقرّر الضابط بشأنك.

اقتادني الجنود دون أن أغطي شعري أو يعطوني فرصة، لم يتركوا لي فرصة حتى ألتف بالحايك. أخرجاني من البيت وقدماي تجرّان خلفي مثل شاة تقاد إلى المذبح، تركت ورائي صراخي، وعجز أبي عن منع العسكر من أخذي، أوصلوني إلى الربوة، ورموا بي في باحة بيت سليمان حيث كان يجلس الضابط الأشقر على كرسي خشبي، يتأرجح به إلى الأمام والخلف، أطلق العسكريان يدي عندما صرت طريحة عند قدميه، أحنى رأسه ليتمعّن في ملامحي بصمت مخيف، فاحت منه رائحة التبغ عندما لامس أنفه المدبب جبيني، اشتمني كذئب جائع لفريسة طال انتظارها، أومأ بحركة رأسه إلى الجنديين أن يدخلاني إلى الغرفة، فعلا ذلك بسرعة كلب، وربطا وثاقي، أصبت بدوار شديد وجعلني الغثيان لا أفرق بين النافذة والباب الذي أغلق من الخارج بإحكام شديد، أحسست أن الموت يتسلل إلى كل مفاصلي وأصابع قدميّ، حاولت الصراخ، فلم أقو عليه، وقعت مغشيا علي ونمت حتى المساء. لم أقدر مدة نومي بالداخل إلا بعدما سكب أحد الجنود الماء على وجهي، القايد يرافقهم ويحمل قناديل زيتية، همّ بوضعها في كل زوايا الغرفة، فهمت أنني غبت عن الوعي حتى حلول الظلام، وأحضرت القناديل لإنارة الغرفة، تلاشى الظلام من حولي، حينها وجه كلامه:

- يكفي، هذا يفي بالغرض .

غادر الجنود، أنار البرق باحة البيت، تبعه صوت رعد ورياح هزت أغصان الشجر، ارتسمت أمامي صورة أبي وأمي إن كانا بخير أم لا، حتى وإن كانا كذلك، فهما قلقان بشأني.

دخل رجل آخر إلى الغرفة يرتدي قميصا خلته في الأول إمام القرية الذي قتله سليمان، فزارني شبحه هنا، اقترب مني، فعرفت أنه الضابط الفرنسي. استغربت سبب ارتدائه للقميص في هذا الجو البارد، تملكني الذعر عندما واصل الاقتراب، وتقلصت المسافة بيننا، كلما تقدم خطوة نحوي تراجعت خطوة، التصقت بالجدار فدنا الضابط مني، أمسك بيديّ، علقهما فوق رأسي على الحائط، وأنا مثل طائر جريح بين فكي وحش جائع، عندما حاولت التخلص منه بحركة خفيفة رماني بكل قوة، فوقعت على الفراش. حينها عرفت أنه أعد لهذا الاختطاف، اعتلاني وأمسك ذراعي الموثوقتين بحبل بيد واحدة، اعتلاني وارتطم بصدري، أحسست لوهلة أن ضخامته تنفع لأول مرة، فهو يبقي فم الضابط بعيدا عن وجهي، يحاول تقبيل فمي، فأدير رأسي باتجاه كتفي بسرعة، حين فشل في مبتغاه وضع شفاهه على رقبتي وأخذ ينهشها مثل وحش جائع، حاولت تحريك قدميّ كي أدفعه إلى الخلف، كانتا مثبتتين بين فخذيه، فلم أتمكن من مبتغاي. أحسست ببرودة موتي ورجفة

غوايته، ارتخت عضلاتي عندما مزق عني ثيابي وبرز له ما كان يريده، اضطربت حرارة جسدي؛ فزادت برودة تارة وكنت أحس بها موجة من جليد، وتارة موجة من نار. بدأت عضلاتي الرقيقة في الانهيار بعدما كنت أستجمعها حتى أدفعه من فوقي، أكمل تمزيق ثيابي، رفع رأسي وبدأ في صفعي دون رحمة حتى أسلمت نفسي لدوار لم أعد أقوى بسببه على الحراك. لم أكن سوى جثة هامدة تحته يتراءى لي وجهه مضببا بغير ملامح، وأنا أستعيد وعيي بين لحظة وأخرى لكن دون أن أحس بشيء من حولي، قشعريرة تشبه موتا بطيئا مؤكدا، موتا يصل إلي ويكاد يجتث روحي، ثم يتوانى عن مهمّته التي أردتها أن تنتهي بسرعة ، فقد كانت لليلة من العذاب . الضابط كويرنتان في قريتنا، وفي بيت سليمان، ربما بعض البيوت لا تعطي لساكنيها غير الموت، وبعضها الآخر يمنح الحب والأمان، تمنيت أن تقبض روحي قبل أن ينال مني، أعادت إلي وعيي تأوهه بصوته العالي وأنينه الذي أطلقه في حالات ضعف، تركني أسبح في دمائي، وجرح ينهشني أسفل بطني، لبس قميصه وتركني في دوامة وحمى، وبين كوابيس الليل وذكريات الماضي، حلمت أنّ أُمَّا يامنة تركض ورائي في صحراء خالية حاملة قليلا من الماء، تحاول أن تلحق بي وتمنع رحيلي عنها، تشبثت بي بينما تقوم يدان ضخمتان برفعي إلى أعلى. أرفع رأسي إلى أعلى حتى أرى من الذي يحاول حملي

فلا تظهر إلا يداه وذراعاه، تبتعد عني أُمَّا يامنة في الحلم بينما أسبح أنا في الفضاء محمولة كريشة تعبث بها الرياح صعودا ونزولا، دون أن تلامس الأرض. فتحت عينيّ، وإذا برجلين كل بقميص أبيض وبرنس أحمر حملاني وأدخلاني إلى مبنى كبير لم أره من قبل. صعدا بي الدرج وأدخلاني غرفة بدت لي أنها مخصصة للضيوف، تفوح منها رائحة المسك والبخور والدخان المنبعث من الشمعدانات المعلقة.

الجزء السابع عشر

نادى مول الموسطاش بأعلى صوت من أسفل الجبل على الأخوة أو الخاوة كما يحلو له، لا يتوانى القادة عن تلبية أمره والحضور فور سماع صوت مولاي إبراهيم، ينزلون إلى سفح الجبل يطيلون البقاء أحيانا، لكن منذ أقام كمين الزرزور كثرت اجتماعاتهم وأصبحوا يطيلون المكوث بالأسفل، لا يعودون إلا ومعهم رغائف الخبز التي يحضرها أحد الراعاة .

أصبحت الأكثر انتظارا للرغيف بين المقاتلين، لم تعد لي رغبة في اصطياد الأرانب، رائحة الرغيف تعيد إلي صور الحطب التي توقد لطهو الخبز في الغيشة والأرانب تذكرني بشيوخ الزاوية.

لم أعد أرغب في استذكار ذلك المكان، أشعر بالاختناق كلما راودتني ذكريات هاربة من هنالك.

التقيت بمولاي إبراهيم هذه الصبيحة، كان لقاء طويلا أو هكذا بدا لي على الأقل هذه المرة. تبادلنا أطراف الحديث، نظر في عينيّ مرة، تذكر عمار وترحم عليه، ترحم على الكثيرين ممن فقدهم:

-هكذا هي الحرب ! يعيش فيها من نعتقد أنه مات، ويموت من نعتقده أقوى من الموت، وضع يده على كتفي، ثم أمسك بيديّ، ثم أضاف:

تفاجأت عندما التحقت بنا بعد وفاة البَريكي، كنت أعتقد أنك استشهدت.

- بل هي فترة قضيتها في السجن. قصصت عليه ما تعرضت له في الفترة الأخيرة داخل المحتشد بأفلو وفي القرية. لم يبد أيّ استغراب كنت أرويه له، لكأنه كان يعلم بتفاصيل عن مساجين المحتشد، قال إن بمحتشد أفلو مئات القادة السياسيين والعسكريين، ولا يستبعد أن يحاول تقديم مساعدة إن صادف مروره رفقة الجيش لشرق البلاد.

ما عهدته سابقا هو أنه لا يطيل الحديث، التفت إلى جنديين آخرين، وراح يكلمهم عن "لبيَض سيدي الشيخ"، وسعيدة، والنعامة، وقرى صغيرة بضواحيها لا أعرفها، ولم أسمع بها، مولاي كان يبدو مُلمّا بكل شبر على مشارف الحدود الجزائرية المغربية.

توجهنا إلى حقل الرماية بعد إنهاء الحديث مع القائد.

حين تقدم الملتحقون الجدد للتسديد، لاحظت أحد المقاتلين؛ شاب كان قد التحق ليلة البارحة وأبدى لي رغبته في البقاء، خاف أن يتمّ رفضه في العملية القادمة، همست في أذنه حين تقدم للرمي أن يأخذ نفسا عميقا قبل إطلاق النار على الهدف، ففعل ذلك، ونجح فعلا في الأمر. استدار مولاي إلى أحد الجنود، وطلب منه أن يغادر المعسكر باتجاه المدينة، وأن يعود في المساء بعد أن تتلاشى

آخر خيوط الشمس. كان يصر عليه أن يعود حيّا ويتوخّى الحذر من دوريات الفرنسيين. حاولت أن أتلصص باستراق السمع فأعرف ما كلفه به القائد مولاي.

غروب الشمس وقت المناوبة يبدو أنه الأخير في هذا المكان، آخر ليلة بين الصخرتين لم يطلعني أحد على خبر مثل هذا، لكنني أعرفه في وجوه الآخرين، عشته أول مرة عندما رحل أبي في طفولتي إلى واد سوف، جمع أغراضنا وأخذنا إلى بيت جدي، غادر دون أن يلتفت اعتقدت أنه لن يعود؛ لأن أمي كانت تبكي كثيرا في خلوتها بنفسها. رأيت علامات الرحيل في وجه الكثيرين في الغيشة، خاصة في وجه أمي التي طلبت مني ذات ليلة أن أنام في حضنها. عانقتني بشدة كما لم تفعل من قبل، كانت تضمني تخاف أن تفقدني وفي صباح اليوم الموالي غادرتنا محمولة على تابوت وسط التكبيرات، أحيانا تفوح رائحة الرحيل قبل أن يحدث، وأحيانا نطبخه داخلنا على نار هادئة، رحيلي من الزاوية كان يكبر داخلي مثل طفل صغير انتظرته حتى اشتد عضده، وغادرت في منتصف الليل تاركا ورائي امرأة متزوجة تمضي الليل في جناح العلاج، وزوجها في جناح الضيوف، كان صراخها أشبه ما يكون بتأوه أو أنين. عاشت معي تأوهات النسوة وأنينهن، خلته دائما بسبب الرقية، لكنه كان - في حقيقة الأمر - بسبب الشيخ الذي يقضي ليلته مع كل واحدة وقعت في

شركه، غادرت المكان وأنا ألعن جدرانه ومشايخه ؟ أدركت أن الله في كل مكان ولا ينحصر في جدران عين ماضي كما علمنا الأولون. رأيت الرحيل في عيني مولاي إبراهيم هذه الليلة، كان لضرورة أمنية ربما بعد أن بلغته أوامر من وهران، الثورة اندلعت في كل مكان، ولم تعط إشارتها في غرب الصحراء، كمائن مولاي هي التي أثثت للرحيل، أي أرض ستحمل هذا الجيش ؟ أي جنود سيسقون أرضها بدمائهم؟ وكما تسقى بدماء الشهداء، ستسقى بدماء العدو والحركى، وحدها الدماء هي التي تحقق توازن الرعب بيننا وبين الفرنسيين كما يردد مولاي في كل خطاب. اعتدت على رؤية الظلام من أعلى الجبل.

نسمات أول أكتوبر للعام الماضي كانت في الغيشة باردة مثل صقيع يلفح وجهي، نسمات أكتوبر لهذه السنة أقضيها بين الصخرتين، اعتلاء الصخرة يجعلني أرى العالم من الأسفل يمدني بشعور القوة دائما، شعرت بالنعاس يخطفني.. لم أشرب قهوة المساء في المغارة، ولد الجوهر مريض، يشعر بنزلة برد حادّة تركته طريحا في المغارة منذ أمس نائما بجانب كومة من الجمر.

أسندت ظهري للصخرة علي أستريح قليلا، شعرت بدوران خفيف بين اليقظة والنوم، ليس هناك إلا خيط رفيع. كلمني أحدهم فالتفت إليه وإذا بي أجده يشبه طيفا يقترب مني، لم يبدُ

واضحا، لكنه اقترب بسرعة عندما فكرت في الهروب أو إطلاق النار .. كلما اقترب مني عادت رائحة هاربة من الزمن عرفتها من أول نفحة، كانت الرائحة التي شممتها بالسجن، إنها رائحته شيخ الزاوية الذي كان يرافقني ليلا !

-أنت ؟ ما الذي تفعله هنا ؟

-أنا دائما بجانبك لم أتركك يوما .

- أنت لست حقيقة. لا يمكنك القدوم إلى هنا .

- شششست، اصمت، كف عن الكلام، فقد جئت كي أرافقك من جديد إلى هناك .

- لا، مكاني هنا في الجبال لا أحب القصر، ولا أود دخول الزاوية مجددا، هنا أشعر بالحرية أكثر، هنا يجوز لنا أن نقاتل فرنسا.

- أتهرب من ماضيك يا لعرج ؟

الماضي ليس في عين ماضي، ماضيا في قريتي، في تسكعي بين أزقة الغيشة، أحلامي كلها دفنت هناك في تابوت أمي في الزمن الذي يقضيه سليمان بانتظاري، في صبر ذهيبة، في حب أبي الذي تحوّل إلى كره بعد أن تزوج مجددا، وتخلص مني بحجة أنه علي أن أصبح إماما فأبعدني عنه، ماضيا ليس داخل قصر لا يعنيني، ولا يستحضر ذكرياتي، الإنسان ولد ومحيطه هو أمه وأبوه، وأنا ابن الغيشة.

هنا في الجبال لا ننعم بالأكل الجيد ولا بالدفء، هنا ينبعث أمل التحرر من الانصياع لفرنسا، إن لم نعش أحرارا على أرضنا سقتها دماؤنا، هي هكذا علاقة الإنسان بالأرض كالعرض تماما علاقة دماء.

أريدك هذه المرة في جولة أخيرة .

أمسك ذراعي وحثني على الوقوف، ثم طلب مني النظر باتجاه الجنوب الشرقي.

- هل تراها ؟

- لا...لا أرى شيئا.

-افتح عينيك جيدا وركز معي، استرخ فهي بذاكرتك، يجب أن تبصرها بعقلك لا بعينيك.

- إنها فقط سحابة تتلاشى، ها هي تبدو واضحة الآن، إنه القصر لم أزره منذ آخر مرة ليلا برفقتك ..

-أنت تكذب علي يا لعرج، لقد عدت بعدها وارتكبت جرما شنيعا.

- أيّ جرم تتحدث عنه ؟

-أنا فقط عدت لاكتشاف غرف القصر.

- لكنك تطاولت وسمح لك غرورك وحماقتك المتكررة بالتمادي والولوج إلى الغرفة المقدسة، وتفحصت كتاب لالا يمينة بيديك

المشوهتين وقلبك المريض، ألهذه الدرجة تنكر فضل الزاوية عليك؛ الزاوية التي آوتك وعلمتك.

- لم أجد شيئا سوى بعض الصفحات عندما تسللت إلى القصر في وضح النهار. كنت أعتقد أنني أرتكب خطيئة كبرى بدخول الغرفة المقدسة، لكن كنت أسير نحو الحقيقة. تجولت بين الغرف، أعجبني بلاطها الفاخر الإسباني أو الإيطالي، لست أدري بالضبط ما هو، تفحصت غرفة، فوجدت سيارة فاخرة حتى في عامنا هذا لم يقدها إلا الجنرال بيجو في شوارع العاصمة.

أكانت هناك سيارة قبل سبعين عاما، هي المرة الأولى التي أرى فيها سيارة لجزائري، عربة أحصنة ملكية خصصت لها غرفة في الطابق السفلي كانت محاطة بعجلات بدت احتياطية، استعملت كلها، يبدو أن التجوال بالعربة كان متواصلا، وأنا بباحة القصر كان سمعي يلتقط بين الحين والآخر نغمة هاربة من إحدى الغرف؛ كانت أقرب إلى الموسيقى منها إلى صوت عصفور مغرّد، صعدت إلى الطابق العلوي صوت النغمة يرتفع وصار واضحا بشكل جلي تبدو قطعة هاربة من معزوفة بيانو.

دخلت إلى الغرفة التي تبدو من خلال شساعتها وأسرّتها الفاخرة أنها لصاحب همة، أو أعلى سكان القصر شأنا. فإذا بها كانت للخليفة سيدي أحمد التيجاني ! تغير لحن المعزوفة وصارت رنات

متتالية، كان أحدهم يمرر أصابعه على البيانو ببطء، تملكني الذعر قليلا، ولكن سرعان ما لملمت شجاعتي التي كانت تتناثر مع كل نقرة بيانو، قصدت الغرفة الخلفية حيث منبع الصوت، كان هناك فرخ أزغب يحاول الطيران، وقد سقط من عشه فوق بيانو أوريلي بيكار. يبدو أنه لم يجد غير صوت البيانو يستأنس به بعد أن يحدثه بقدميه الصغيرتين.

الخزانة الرثة تترامى من حولها أوراق بالية كساها غبار السنين. فتحت درج الخزانة السفلي، كان الدرج الوحيد المتبقي، كتاب يحتفظ بغلافه الجلدي يحتوى على رزمة من الأوراق، كتب فيها:

الورقة الأولى:

عزيزتي الشقراء، نظراتك لي هي التي دفعتني للكتابة إليك وأنا الذي لم أتأكد بعد إن كانت نظرات إعجاب وحب كالذي أكنه لك بين ضلوعي، أم نظرات استغراب واحتقار للباسي العربي وبشرتي السمراء. كلّ ما صرت أعرفه عن نفسي هو أنني نسيت المنفى منذ أن أسرتني عينك الخضراء، صرت سجينك لا سجين فرنسا، أحببت مدينة بوردو ودوالي بوردو في لحظة بائسة بعد أن كان شوقي لأهلي هناك في الجزائر، تلاشى وصار الشوق أن أراك كل يوم مارة من الفندق إلى السينما، ما أقسى أن أنشطر نصفين: نصف لأهلي ونصف لك يا أوريلي.

الورقة الثانية : مذكرات أوريلي

سافرنا من باريس إلى بوردو بسبب الحرب التي يشنّها الألمان، قال أبي بأن الحكومة ستنتقل إلى هناك، حملنا أغراضنا وانتقلنا برفقة الوزير، كأنّه كان وفيّا لقبعات البريد التي أخيطها، نزلنا في فندق فاخر من أربع نجوم، حجزت غرفة باسمي وغرفة باسم أبي وأمي واستقرت عائلة الوزير في الطابق العلوي للفندق، لم أكن أرتاد حانة الفندق في نهاية الأسبوع، كل النزلاء الذين يرتادونها يتحدثون في أمور الحرب لا غير، يرقصون على أغنيه صاخبة يشربون الخمر حتى ينتشوا، ثم يغادرون إلى غرفهم بعد منتصف الليل، ألتقي بعضهم في بهو الفندق وأنا عائدة من السينما .

ذات مساء وبعد فيلم طويل عدت متأخرة إلى الفندق، كان يرمقني بنظرات غريبة يلتحف في برنسه الأحمر وعمامته البيضاء تتربع فوق رأسه، انحنى احتراما وتقدم، بعدما استأذن وبادر بالكلام، كنت خائفة من هندامه الغريب، غير أن ابتسامته التي تبعتها حمرة الخجل الشديد طبعت في قلبي طمأنينة توحي بأنه وراء غرابة مظهر هذا الرجل نبل كبير.

الورقة الثالثة :

في صباح اليوم الموالي راسلني مع خادم الفندق الذي وضع رسالته فوق طاولة الفطور يصارحني فيها بإعجابه وحبه وغربته،

عرفت أنه جزائري منفي. كان يطاردني بنظراته وصمته بين أركان الفندق في المضي والعودة، أخبرني خادم الفندق أن السيد يدعوني لفنجان قهوة في تلك الزاوية من النزل، ترددت في الذهاب لم تكن من عادتي أن أجالس الغرباء خوفا من أبي، خصوصا وأن الدعوة من بلاد أعداء يرسلون إلينا في كل شهر جثث أبنائنا من وراء البحار مع سفن العبيد القادمة من البحار، ترددت في الذهاب، ثم استجبت لدعوته على ألا أطيل البقاء برفقته بادرته بالتحية:

-بونجور مسيو

-بونجور.

كانت فرنسيته ركيكة غير حاملة لكل معاني كلامه، غير أن الفكرة كانت تصل مع بعض الكلمات والنظرات المنبعثة من عينيه السوداوين وابتسامته الخفيفة المرتسمة على خده الأسمر.

حمل كوب قهوة. بشرته سمراء، قامته قصيرة، يتكلم في خجل واضح ثم أردف :

*-اسمعي يا سيدتي الفاضلة **أنا** لست رجل ملاهٍ، ولا رجل علاقات، وددت أن يكون لقاؤنا هذا مصيريا جدا، إما أن يكون الأخير فلا أراك بعد اليوم، وسأغير الفندق إن وافقوا على ذلك، وإما أن نلتقي دائما بصفة مستمرة دون أن نخشى أحدا في لقاءاتنا هذه.*

حدقت في عينيه، كان يتعرّق أثناء حديثه. لم أفرق لحظتها إن كان متسرعا أم جريئا، صمت برهة أخذ نفسا عميقا قبل أن يضيف:

- *أنت تعجبينني كثيرا يا آنسة، صدقيني، منذ أن رأيتك وصورتك تتراءى أمامي بشكل دائم، عندما تمرين أمامي يزداد خفقان قلبي، ومع كل خطوة تلوذين بها خارج الفندق أحس بروحي تستل شيئا فشيئا نحو الباب، فتغدو كل أحاسيسي وراءك، وأبقى هنا في البهو جثة حزينة إلى أن تعودي، أريد أن تقبلي بي زوجا.*

ضحكت بصوت عال جدا حينها، حاولت كبحها غير أن قهقهاتي العالية جذبت انتباه كل من كان جالسا في بهو الفندق، غادرت راكضة غير آبهة بحماقات الرجل مخلفة ورائي صمته وخيبته التي خلّفها انصرافي دون إذن.

لم أسأله عن اسمه إلا في اليوم الموالي عندما انتظرني كعادته في المكان الذي اعتاد الجلوس فيه، كنت خارجة للتسوق لاقتناء بعض الأقمشة التي أستعملها في خياطة قبعات المدير، تقدم إلي مباشرة، حياني فرددت عليه التحية :

أنتظرك إلى أن تعودي آنسة أوريلي ؟

-لا يا سيدي، سأمكث ربما مدة طويلة في الخارج، كنت أحاول إيجاد أي مبرّر أو طريقة للتخلص منه، وحينما أدركت أنه لا يأخذ

كلمتي على محمل الجدّ ولا يصدق حجتي كيفما كانت، قررت أن أسأله عن اسمه حتى يتوهم أنه يحظى ببعض الاهتمام فينتظر داخل الفندق، ويكون مطيعا لأول رغبة لي.

-لم تخبرني باسمك يا سيدي ؟

-أحمد عمار التيجاني هو اسمي الكامل، ناديني أحمد، هذا يكفي

ترك يدي التي كان يمسكها بين يديه الغليظتين، سحبتها بعد أن جثا، أحسست بحمى هاربة من شفتيه تتسلل عبر ذراعي تاركة رعشة غريبة سكنتني طوال ذلك اليوم.

- لايبدو ضيفا مثلما يقول. إما أن يكون مولودا هنا أو أمضى وقتا طويلا بفرنسا، يبدو خبيرا بأمور النساء .

الورقة الرابعة

كانت نهاية أسبوع شاقة للجميع، بمن فيها والدي والوزير. لم يعودا منذ ثلاثة أيام إلى الفندق، كان يهاتفنا ليطمئن على حالنا، عاد في نهاية الأسبوع بعد اجتماعات كان تعبها باديا على ملامح وجهه.

صعد إلى الغرفة ولم ينزل منها حتى طلبوا حضوره إلى القاعة الشرفية. نزل وجهزت نفسي للحاق به رفقة أمي.

الطاولة المستديرة يلتف حولها رجال كثيرون، الصالة كانت تعج بنزلاء الفندق الذين يقضون وقتهم وينفضون عن أنفسهم تعب

الأسبوع. الموسيقى تنبعث من جهة الباب الخلفي، حجزت الطاولة بجانب أبي.

كان الرجل العربي يجلس معهم رفقة أحد المسؤولين في الدرك الفرنسي.

طلب يدي من والدي مصرّا على الزواج بي، كنت أسمع ترجيه في إعادة الجملة التي هزتني رعبا:

سيد بيكار زوجني ابنتك أوريلي، أعدك أنني سأحميها من كل سوء،

مسؤول الدرك يضيف كذلك:

- هيا سيد بيكار وافق على طلب الرجل. نحن أدرى بمن سينعكس إيجابا على فرنسا كلها، هذا الرجل يحمل كل الودّ لنا.

- لكن هي ابنتي الوحيدة يا سيدي ! كيف لي أن أرسلها بعيدا عنا.

- المصلحة ستكون مشتركة؛ لنا ولها، فهي ستعيش هناك لا هنا، لقد ناقشت الأمر مع السيد أحمد، ولم تبق إلا موافقتك.

اصطحبني أبي إلى زاوية منفردة في الصالة وطلب رأيي.

الورقة الخامسة

اليوم قرّرت الحكومة الفرنسية إطلاق سراح الرجل العربي أحمد التيجاني، هكذا أخبرنا أبي:

سيغادر اليوم، ربّما هو الخيار الأفضل لنا جميعا، يعود هو إلى وطنه، وأضمن أنا ألا تغادرنا أوريلي، لست مضطرا لذلك حتى وإن كنت سأفقد عملي.

اتكأ على الأريكة ورمى برأسه إلى الخلف من تعب اليوم وتمتم:

- حتى وإن لزم الأمر أن أخسر وظيفتي.

- أنهى كلامه وانغمس في نوم عميق، غطته أمي في مكانه ونام حتى الصباح.

في فجر اليوم الموالي حضر النادل باكرا وأخبره أن القائد يرسل في طلبه. حضرت أمي نفسها للخروج، وجهز أبي نفسه للنزول إلى قاعة الفندق، غاب إلى منتصف النهار، ثم عاد إلى الفندق. طلب منا بشكل مفاجئ سريع على غير عادته أن نوضب أمتعتنا ونستعد للسفر هذا المساء.

انتابني حزن شديد على رحيل آخر، الفندق يخمد قليلا من أشواقي لباريس، يعطيني جرعة من أمل العودة بعد أن تنتهي الحرب مع الألمان، أخمد الفندق جرح البعد عن باريس وأعاد لهيبه السفر نحو الجزائر. هكذا أخبرنا أبي بعدما خرجنا من الفندق واتجهنا

على متن القطار نحو مرسيليا. كان سفرا سريعا غامضا يحمل الكثير في جعبته، غيّر أبي رأيه فجأة بعد عودته وفجأة كذلك طلب منا توضيب الأغراض بسرعة، وكان شيئا ما كبيرا قد تغير.

- سنقيم في الجزائر لأسبوع، ونرى إن كان بمقدورنا العيش هنالك.

***

عدت من حديثي عن القصر وعن أسباب اقتحام الفرفة أتفرس في الشيخ أمامي وهو يجر عصاه، استادر إلى الغرب، ثم إلى الشرق. صعد فوق صخرة المراقبة وجه نظراته العابسة نحوي:

- ماكان عليك أن تقتحم غرف سيدي أحمد التجاني، ظلت هذه الغرفة موصدة إلى أن قرأت ما لا يجب أن يقرأ

- لم أكن أدرى أنه بإمكان أحدهم أن يحبّ امرأة فرنسية. خلت أن كل فرد ينتمي لهذه الأرض ما عليه سوى أن يكره الفرنسيين، إن لم يخلق كرهه معه، فيجب أن يتعلّمه من موت الاخرين ويتمهم.

- سيدي أحمد لم يكن يعرف معنى الكره يا لعرج، كان محبوب الآلاف من المريدين، الفرنسيون أنفسهم كانوا يحترمونه، وإلا لم ساعدوه عندما أحب لالا يامنة.

- هل هي امرأة أخرى من غير أوريلي، أكانت لالا يامنة الأولى أم أوريلي كاتبة الرسائل ؟

رآها وهي تغدو وتروح، وتربي الحمام فأعجب بها، فاتصل بها وأبدى لها إعجابه ورغبته في الزواج منها، في البداية أبدت تحفظها لغرابة هيئته وشكله، فقد كان أسمر قصيرا، لا يحسن الفرنسية، ومع إصراره في طلبها، تعرفت عليه وهالها ما رأت من شرفه ونبله وحسن سيرته، وعدالة قضيته، فأعجبت به هي أيضا، بل وأحبته وتعلقت به، لكن كان لا بد من إقناع أهلها الكاثوليك بزواجها من عربي مسلم، وانتقالها معه إلى صحراء الجزائر. ومع إصرار الفتاة واستعدادها للمغامرة وافق أهلها، وهكذا تواعدا على الزواج بعد إطلاق سراحه ورجوعه إلى الجزائر.

وفي سنة 1871 قررت الحكومة إطلاق سراح سيدي أحمد عمار، وحينها أمكنه الرجوع إلى محل إقامته، فقرّر مع بيكار وابنته زيارة الجزائر لمعاينة ظروف إقامتها في حال زواجها به.

وبعد حصول سيدي أحمد عمار من "باتريس مكماهون" على رخصة دخول الوطن والاستقرار في الجزائر العاصمة بحي سانت أوجين باب الوادي، كانت إقامة أوريلي وأسرته بالحي نفسه في فيلا اكتراها لهم سيدي أحمد عمار.

طلب سيدي أحمد عمار رخصة الزواج من الحاكم العام ***كونت گيدون****، الحاكم العام للجزائر فرفضها لأن الزواج بين الفرنسيين*

والجزائريين كان غير مطروح، فطلبها عن طريق القضاء فرفض طلبه أيضا.

وبعد أن طالت المدة لم يجد بيكار والد أوريلي بدا من الاتصال بالكاردينال لافيجري، وحكى له القصة وأعلمه برفض الحاكم العام والقضاء زواجهما، وبعد حوار بينهما، أعجب لافيجري بفكرة الزواج، وكان من رأيه أنه سيكون بابا لفتح بناء الجزائر المستقبلية، وتولّى بنفسه تسهيل إجراءات رخصة الزواج، وطلب رؤية سيدي أحمد عمّار، فالتقى به، وتحاورا في الموضوع، وطلب منه حسن معاملة الفتاة، بعد أن بارك الزواج وشجّعه.

وبعدها ذهب سيدي أحمد عمّار وخطيبته أوريلي، ووالدها بيكار إلى السيد "أحمد بوقندورة" مفتي الجزائر العاصمة (الحنفي) فقام بعقد القران على الطريقة الإسلامية، وحرّر محضرا بذلك، وأقام سيدي أحمد عمار حفلا كبيرا في باب الواد، معلنين زواجهما.

وبعد أيام قليلة من الزفاف أعدّ سيدي أحمد عمار العُدة، وخرج في قافلة إلى عين ماضي. دامت الرحلة قرابة عشرين يوما ليجد في استقباله الأحباب في فرق البارود، والمدّاحين، وأقيمت الأعراس، فرحا بقدومه وزواجه، وسمت العروس نفسها "آمنة" على اسم أم النبي - صلى الله عليه وسلم – فأصبحت تُدعى لالا يمينة.

وكان للسيد أحمد عمار زوجتان:

فاطمة بنت سيدي الطاهر بوطيبة، التي لم تنجب أولادا، طلقها سنة 1872 وتزوج أختها، الزهرة بنت سيدي الطاهر. أنجبت له ولدا سنة 1879 وكانت أوريلي تسكن مع العائلة في عين ماضي، ولم تنجب، ولم تعجبها حياة البدو فلما ولدت السيدة الزهرة، استبدت بها الغيرة، وتفاديا للمشاكل، بعث سيدي أحمد عمار زوجته الزهرة إلى تلمسان، واقترح على أوريلي بناء سكن لها خارج عين ماضي، فوافقت، وهكذا بني القصر الشهير المعروف بـ "كوردان". كان القصر أعجوبة الصحراء، لما فيه من بناءات ومرافق متعدّدة وطوابق وأروقة، وحدائق وأجنحة للضيوف، ورحى للقمح ومخازن، ومزارع وشجر مثمر ومبان مخصصة لتربية الحيوان والحمام والدواجن و... مع دار للمساكين، ومدرسة لتعليم القرآن.

ثم أضاف الشيخ :

-يبدو أن سيدي أحمد عمار أعطى الفرصة الكاملة لقرينته كي تحقق كل أحلامها وطموحاتها وإبداعاتها، وهو كذلك قد حقق هدفا كبيرا وهو عزلها عن محيطها باختيار موقع القصر البعيد عن عين ماضي، وعن حركة المريدين؛ لأنه كان على علم بمحاولات المخابرات الفرنسية استغلال وجود السيدة أوريلي، ثم التفرغ وإشرافها

المباشر على أعمال القصر الكثيرة المتنوعة ممّا يجعلها في عمل يومي متعب يصرف فكرها وجهدها عن أعماله ونشاطاته وتحركاته.

-فهمت من الرسائل أنه كان زواجا مدبّرا .

القصر جميل وبإمكانه أن يأوي سكان الضواحي، لكنه لم يحقق أحلامهم .

ولمَ لم يدفنوا داخله ! مثل الآخرين ؟ ألا يتشابه التراب الذي نضع فيه أقاربنا عندما يرحلون! ربما حقق حلم الشابة الشقراء أوريلي في بنائه. أسئلة كثيرة تؤرقني ياسيدي:

-لمَ بُني القصر لعائلة واحدة ! وهل بناه لأنهما أحبا بعضهما البعض؟ أم لأن الفرنسيين أرادوا ذلك ؟

أموال طائلة وثراء وبرَكة رُزقها سيدي، أجابني الشيخ وقد ارتفعت نبرة صوته، ويبدو أن كلامي قد أغضبه، وربما كنت قد تجاوزت المحظور.

-إن كانت أحبته، فلماذا تزوجت شقيقه البشير الذي خلفه في إدارة أعمال الزاوية، الأمير الأسمر دفن في ساحة القصر بمقبرة العائلة حيث لا مكان لعامة الناس وأكملت بقية حياتها في حضن شقيقه، تتفقد قبره في الصباح وتنام في مضجع شقيقه مساءً. مضجعها يطل على قبره .

صحيح أنه أحبها وإلا لما بنى لها حصنا بقدر حبّه لها، لكن هذا لا يبرر بناء قصر بأموال المتصدقين ياسيدي، طالما اعتقد الناس أنها بقيت وفية له لاعتنائها بالقصر بعد وفاته، لكنّها أوقعت أخاه البشير أسيرا لعينيها الخضراوين، الحب يحكم عليها بالخيانة، والزاوية تراها زوجة للسيدين. وفرنسا ضمنت أن الزاوية تدعو للسلام وليس للحرب.

- احذر أن تصبك دعواتي يا رجل، كف عن هذا الهراء.

-نعم، أدارت شؤون الزاوية مع الرجلين ونامت في مخدعين.

بدأ الغضب يرتسم على وجه الشيخ، رزم حاجبيه ووجه نظرات العتاب بسبب ما ذكرت، ونزل من فوق صخرة المراقبة واقترب نحوي :

-هي أموال لولا بركته لما وهبها الناس للزاوية.

-لكنهم يبيتون في الخيام وهو عاش في قصر أدارت شؤونه أوريلي التي تزوّجت غيره، إن كانت مهتمة به وحده لمَ لم تغادر البلدة، الأكيد أنها أحبّت القصر والطاعة التي أبداها سكان البلدة. مذكراتها توحي بذلك، المذكرة الأخيرة تقول فيها مخاطبة أحد رجالات الأمن الفرنسي: إن كل السكان لا يبدون حماسة للالتحاق بالثائرين على فرنسا، لقد نجحت في امتلاك بلدة عندما امتلكت قلب سيدي أحمد التجاني.

-ربما نجحت في تحقيق السلام وإبعاد الحرب عن أهلنا، يكفي أن بركته هي التي أخرجتك من السجن، لن تنال رضاه، ولن يساعدك على أن تغتفر خطاياك، تأكد أنك ستحيا مطاردا بلعنة الصالحين، قال آخر كلامه مختفيا عن نظري، والصبح قد بزغ خيوطه ليوم جديد يفوح برائحة الرحيل ومن جبل بونقطة هذه المرة.

تفاجأت بولد الجوهر وهو يقف عند رأسي منوها بالرحيل، وأن شروق يوم جديد ليس مثل باقي الأيام قد لاح ب ومعه بريق الحرب

لاحظ تشتت ذهني، هو لا يدري بالذي كان يدور بداخلي، وأنا لا أعلم إن كان الشيخ على علم باقتحامي غرف القصر في الحقيقة أم لا.

دار بيننا حوار في الخيال، كم كنت أريد إخباره باقتحامي غرفة القصر ومواجهته بالرسائل. كم وددت أن أسأله عن بيانو أوريلي، وعن المكان الذي وضع فيه كتاب الصولفاج والنوتات التي عزفتها، كنت أريد أن أعرف المزيد عن اللحظات التي عزفت فيها، أكانت بحضور سيدي أحمد أم في غيابه ؟

- أتراها عزفت بعد رحيله وبعد أن صارت زوجة للبشير؟ أسئلة كانت ستعجل بطردي من الزاوية حتى وإن لم أفكر في الفرار منها.

الجزء الثامن عشر

هي هكذا حياة الحرب؛ كلما هدأ روعك واستقرت حالك بمكان دقت طبول الرحيل نحو مكان آخر، الحرب تولد في النفس شعورا بالتيه، والتيه يولد خوفا من الرحيل المتكرر عن الأمكنة، نحنّ إلى المكان الذي نستقر فيه حتى وإن كان جبلا، أو هضبة منسية.

بين الصخرتين عادت كل لحظات القرية ولحظات أخرى هاربة من زمن ليس بالبعيد، قمة الجنون والحنين أن تستعيد زمنا عابرا في أمكنة عابرة. وذروة الانكسار أن يسكنك مكان واحد حتى وإن تعدّدت أماكن عيشك، بعد "الغيشة" فقط هذا الجبل هو الذي سأشتاق إليه.

تلقينا أمر مولاي بأن نسافر قبل الفجر باتجاه الشرق.

لا ندري إن كان مقصدنا آفلو، بريدة، أو جبال عمور، أم نشق طريقنا نحو الصحراء باتجاه ورقلة. كل الخطط محكمة عند مولاي وصاحبه الزرزي. قال سنتكيّف مع الأوضاع، وإن الظروف هي التي ستحدد الوجهة.

بقدر ما كانت كثرة المقاتلين تبعث فينا السرور، فقد كانت المخاوف تزداد بإمكانية انكشاف أمرنا. قرّر مولاي إبراهيم تقسيم الجيش المكون من مائتي جندي أربعة كتائب؛ كل واحدة تتشكل

من خمسين مقاتلا. كنت في كتيبة مولاي أنا وولد الجوهر نسبق الكتائب الثلاث الأخرى، كل واحدة تتخلف مسير ساعة عن التي تليها، وكان هذا من بين الخطة التي نتحرك بها باتجاه الشرق.

المسافة ليست قصيرة من البيض نحو أفلو؛ ستستغرق يومين وليلتين على الأكثر.خلفنا وراءنا جبل بونقطة في حمرته التي لبست من رمال المساء، خلفت هناك على سفحه جراح الطفولة وانكسارات الغيشة واضطهاد الفرنسيين، أفرغت بفمه؟ ما أثقل كاهلي منذ سنين، تركته مع الصباح بعد أن دفنت بين الصخرتين ماضيا ثقيلا مثلما دفنت أمي في مقبرة الغيشة قبل العيد بأيام، ومثلما أنا مدفون بالنسبة لذهبية بأحد الجبال في ألسنة الطير

نتحرك باتجاه الشرق. في كل خطوة أحس أننا نمضي باتجاه الشمس، وأنها تكبر شيئا فشيئا كلّما توغلنا في عرض الصحراء. نسير من ظلام الماضي باتجاه النور الأكبر، الحرب لا يمكن أن توقف هذا الوهج المتطاير من عيون المقاتلين.

سمعت من أحد المجاهدين أننا نقصد آفلو لتحرير معتقلين سياسيين داخل المحتشد. إنها مجازفة ! أن يقتحم مولاي المدينة؛ والفرنسيون في آفلو أكثر من أهلها، لذا يتعرض القرويون الذين يقصدون المدينة للطرد والقتل على أيدي العسكر والقياد، فكيف

سيتأهبون لمائتي مقاتل من الجزائريين إن كانت هناك وشاية، أو بلغ الخبر القيادة الفرنسية.

تتراءى لي الفيالق البعيدة من خلفي مثل كمشة نحل في أعالي الهضبة، وتختفي عن الأنظار عندما تصير بالأسفل، نتحرك باتجاه الليل عندما تصير الشمس خلفنا، وننتظر الصباح الباكر لنواصل المسير.

ظلام حالك تعرفه أول ليلة من شهر أكتوبر، أضرمنا النار عندما شارفنا على الوصول إلى مدينة بوعلام، انتظرنا الفيالق الثلاثة حتى وصلت إلينا. اعتقدت أن النار أضرمت لكي نستريح وننعم بليلة دافئة تنسيني ذكريات جبل بونقطة الباردة، لكنها كانت دليلا للجنود الآخرين حتى يلحقوا بنا، النار منارة الصحراء ليلا.

لاحظت التعب وقد نال من ولد الجوهر بعد مسير يوم كامل قطعنا فيه نصف الطريق :

-لم يتبق الكثير، عليك أن تعتاد السفر , أشار ولد الجوهر الي بالإسراع.

-السفر أثناء الحرب هو المضي نحو المجهول، قد تتعب طيلة الحرب، وربّما تستريح للأبد في أي لحظة. حمل بندقيته من على الأرض، سار لوحده، وكان يتمتم ببعض الكلام يطلب الصفح من خاله، يذكر أمّه بين حين وآخر.

لم أعد أقوى على حمل جسدي بعد يومين من السير في جو بارد. رياح باردة تتسلل إلى العظام، بعض الجنود لم يقدروا على المواصلة، فاضطر القائد مولاي إبراهيم لإعطاء أوامر بالتخييم ليلا قرب قرية تاويالة، لا يفصلنا عنها سوى جبل آخر يمتد على طول طريقنا باتجاه الغيشة. تاويالة على يسار الفيلق والمدينة تتراءى أضواؤها من أعلى الجبل، قصر الأتراك بتاويالة يمتد سوره إلى خارج القرية من جهة الجنوب، لا أدري لمَ هذه القصور كلها إن كنا لا نستطيع المبيت فيها؟

أطفأنا آخر الجمرات بعدما لحقت بنا آخر الكتائب وقائدها الزرزي. قبيل انطلاق كتيبتنا صعد مولاي إبراهيم فوق صخرة مخاطبا كل الجنود، رفع يده اليمنى إلى الأعلى تماما وقد أمسك بالسلاح في يده الأخرى:

-لا أدري إن كنت ألقى بعضكم بعد المهمة هذه، ولعل بعضكم لن يلقاني بعد يومي هذا.

انطلقت الثورة منذ عامين، جاهدنا في الغرب من دون حرب جمعنا السلاح وأرسلناه إلى الشرق والوسط، وإلى كل مكان، الآن وقد أذن لها أن تكون شاملة ستكون نارا محرقة تلتهم كل ما له علاقة بفرنسا . تحمس الجنود فوق اللزوم لدرجة أن بعضهم كان يذرف دموعا مع كل كلمة يقولها مولاي، لا تظهر الدموع والأعين في

الظلام، لكن تسمع آهات الرجال الذين يقصدون الموت، ويتركون خلفهم وطنا سينعم بالسلام ذات يوم.

سنقصد المحتشد في قلب مدينة آفلو، وسنسعى لتحرير المحتجزين، انطلقنا نحمل الموت في كل واحد فينا، ويحمل الموت بعضنا ويحيط به دون أن يدري، بيننا وبين الموت خيط رفيع ووطن. وصلنا إلى قرية صغيرة تقع بين جبال تاويالة والغيشة في الثالث من أكتوبر ستة وخمسين وتسعمائة وألف، أخرجت ورقة وقلما ودوّنت التاريخ ومعه اسمي، أعدت الورقة إلى جيبي الخلفي، لم يعد يفصلنا عن قريتي سوى ساعة، أو أيام من القتال، ننتظر فقط أن نخيم في جبل الشوابير قبل أن نقتحم المدينة، الاختباء بين هذه التضاريس الوعرة والجبال المحيطة بنا ستعقد الأمر على الفرنسين كل شيء كان مدروسا لولا أن اشتبك رجال الزرزي خلفنا بتاويالة مع عشرة عساكر وقضى عليهم جميعا، غنمنا بعض الأسلحة وجهازين لا سلكيين للاتصال، لحق بنا جندي من كتيبته ناول مولاي جهازا علّه يتصل به، فرفض مولاي استعماله خوفا من إمكانية انكشاف مكان المجاهدين.

بتنا ليلة الثالث من أكتوبر في الشوابير، تقابلنا مدينة آفلو من الشرق والقرية على يميني خلف الجبل تختبئ في حفرة الموت.

صحونا في الرابع من أكتوبر على أصوات الشاحنات الفرنسية والدبابات. هل كشف أمرنا ؟! رميت بالسؤال لولد الجوهر الذي كان يقبض بشدة على زناد البندقية، لم يجبني وفضل أن يعدّ الشاحنات التي كانت تحمل عددا كبيرا من العساكر الفرنسيين وتسير عكس اتجاهنا، خلتها في الأول أسطولا عسكريا حول إلى البيض بحثا عنا. أعدت تدوين تاريخ الرابع من أكتوبر ستة وخمسين على الورقة، ثم تبادر إلى ذهني أن تدوينه على صخرة من صخور الشوابير بخط عريض وباستعمال حجر يكون أفضل. أردت لذهيبة أن تعرف في حالة موتي أنني متّ هنا عند مدخل القرية، أردت لسليمان أن يعلم بقدومي إليه كما وعدته، أردت لجبل الشوابير أن يظل حافظا رحيلي ورحيل حصاني قبلي بأشهر. امتدت الشاحنات على طول الطريق تدوي في المكان وتهز الأرض من تحتنا، وتبعث بصوت الهلع إلى كل من يخاف الموت. الموت ! أنا لم أكن أخافه طوال عمري، لكني خفت أن أموت بمدخل القرية، اكتشفت أننا سنتلاحم معهم عندما سمعت مولاي يكلم الزرزي في اللاسلكي :

-نتحرك باتجاه الغيشة، هم الآن قادمون باتجاهك، لا تطلق النار إلا إذا بدأت في الشرق، وأنا لن أفعل إلا إذا اندلعت في الغرب.

ستة وتسعون شاحنة من جيامسي عدّها ولد الجوهر وبعض الدبابات. كل الجنود الفرنسيين بين كتائب مولاي الموزعة عبر

تعرجات الطريق، ما كان يعطينا امتياز الحياة هي الشعاب التي نقبع فيها، وما يعطي الموت طعما هي الأرض التي قد نموت فيها .

انطلقت أول رصاصة من رشاش مولاي إبراهيم استقرت في جبين سائق الشاحنة الأولى، تبعتها تكبيرات الرجال، كنت بجانب مولاي أساعده في إكمال الجنود المتبقين من كل شاحنة، تصمت بنادقنا فتلتقط مسامعي طلقات بالأسفل عند كتيبة الزرزي.

الطريق صارت مغلقة من الجهتين لا منفذ أمامهم، هم في مرمانا مباشرة، لم أكن أعد الجثث التي كانت تتهاوى من الشاحنات كما كنت أعدها في كمين الزرزور. إسقاط عسكري هنا لا يأخذ كثيرا من التركيز لقرب المسافة في القنص، أحسست بهم أشبه بأرانب تتهاوى، صوت الرشاش لم أعد أسمعه بعد انفجار قنابل رماها مجاهدون في الشاحنات، لم تكن حربا بصوت البارود، لكنها كانت معركة فقد فيها الصوت، أشلاؤهم المتطايرة هي التي كانت تفسر ما يحدث، المجاهدون الذين نفدت ذخيرتهم تسللوا إلى الشاحنات وجلبوا رشاشات أخرى، السلاح والذخيرة لم ولن ينفدا ... والموت لم يسترح من قطف الفرنسيين. من صباح اليوم إلى الظهيرة، نتبادل الإطلاق، الطلقات التي كنت أرصدها من جهة الزرزي هي التي كانت توحي أنه ما زال يقاتل المدد الذي كان يصل إليهم. لم يقدر على التوغل في غابة الشوابير. كان اللاسلكي الذي غنمناه قرب

تاويالة ينطق بفرنسية سريعة لم أفهم منها ولو كلمة واحدة التقطه ولد الجوهر بعد أن سقط من مولاي، وضعه أمام فمه ونظر في السماء كأنه كان يخاطب طائرة بعينيه تحلق بالقرب منا عندما أطلق جملته التي أنهت المعركة في ثوان :

توس فلاڤا ! العبارة التي ما إن أكملها حتى خرج وابل الرصاص من الطائرة أباد كل من تبقى من الفرنسيين؛ فقد اعتقد الطيار أن من هم بالأسفل كلهم مجاهدون، كانوا مكشوفين أمامه، بينما كنّا نحتمي بالصخور المتلاصقة بجانب الطريق . حملنا اثني عشر شهيدا بعيدا عن المكان كانوا قد استشهدوا وخبأناهم بأحد الوديان، تعهد أحد رعاة الغنم الفارين بدفنهم إذا ما سمحت الفرصة بذلك . عبارة مولاي: *الدم راه في البوادن*، التي مازح بها الزرزي ونحن نسير باتجاه الغيشة بعد نهاية المعركة هي التي أكدت لي أن من مات من الفرنسيين يعادل أضعاف سكان قريتنا . توغلنا في الشعاب، المساء يميل إلى الحمرة، والرابع من أكتوبر 1956 سيبقى أحمر بدماء جنودهم، خالدا في ذاكرتي.

وعدت سليمان أن أحدثه عن انتصاراتي، وعدته بأن أعود إليه كي آخذه معي، وعدت نفسي أن أعود لذهيبة التي تعتقد أنني ميت قبل اليوم، وعَدتُ الغيشة أن أزيل عنها الخوف، فمات كل الخوف. سرت قرابة ساعة باتجاه واحد أقصد الغيشة وأنفصل عن

الكتائب المتجهة غربا، لم أكن أشعر بالتعب على الإطلاق، ماتت فيَّ جميع أحاسيس الخوف والموت عندما تراءت لي القرية .

مرت الطائرة من فوقي تسبقني إليها، كتائب مولاي توغّلت بعرض الصحراء غربا بعدما لم تتمكّن من الاستمرار باتجاه الشرق أهي الطائرات تبحث عمن كان بمعركة الشوابير، أم أنها تمضي إلى القرية؟.يعتقدون بأننا سنختبئ داخلها، بين ازقتها، لطالما كانت القرى رحم المجاهدين وبيتهم، فهم يعرفون أن القصور لا تأوي الفلاقا... أردت أن تعود تلك الطائرة اللعينة، تمنيتها **أن** تمشط الجبال وأن تبحث عني لا أن تخيف عمي عيسى أو سليمان لا أريدها أن تمضي باتجاه الغيشة، لم أكن أتصوّر أنها قد لا تعود. تعثرت في كثير من المرات. كنت أركض ورأسي معلقة إلى الأعلى أنادي الطائرة في السماء وأمني النفس أن يراني الطيار فيعود أدراجه، قدّمت له نفسي بدلا عن القرية فلم أفلح، تحاشاني الموت واختارهم، خلفني لصراخي مرميّا بين الصخور في أعلى التلة.

ليلة باردة وقصف وموت، وصوت مدوّ متواصل سكن الغيشة طوال الليل. الغيشة اختفت تعاليمها مع أشعة الصباح الباهتة الأولى، اختفت الأزقة والمنازل وكلّ حياة. هرب إلى الوادي من كان قادرا على الفرار، ومات من مات.

يا أهل الغيشة، هل جلبت لكم النصر أم الموت؟ أم بشرى الخلاص من الضابط كوينرتان الذي هو الآن ملقًى قتيلا في باحة بيت سليمان؟ أيموت الجميع وأبقى وحيدا ؟

لم تعد الغيشة إلى الحياة إلا عندما توغّل صوت الناي من الأعلى حيث يختبئ سليمان في حزنه ولحيته.

ذهيبة يااااا ذهيبة، الغيشة لم تعد كما كانت، كل شيء صار بقايا ذكرى، قطع القرية الصغيرة تتلاشي هنا وهناك، طيور الحمام التي أحبّت شَعرك والطاحونة قبالة الوادي، كلُّها ستبقى تذكُرنا ونذكُرها. لم يبق للحمام أي أثر، لم يبق إلا ريشُه الأبيض المغطوس في الدم وقد غطى أزقة القرية وقرميدَها القاتم. حتى المئذنة، رحلتْ، وماتت معها طقوس الحمام، لم يبق إلا الحطام، لم يبق إلا شتاتٌ من حسرة وأنين ووُجوم على وجوه من نجوا، إنني أقرؤها في تفاصيل تجاعيدهم التي صارت أعمق، وفي زقاقنا الواسع يا ذْهَيْبة الذي صار ضيّقا، لم يعد واسعا مثل صدر "أُمَّايامنة"، جدرانه التي رُسمت عليها أحلامنا افترشت الأرض، كلّ ما بقي في الغيشة الآن صمت أبديّ، وحزنٌ يعزفه لسليمانَ المجنون نايُه الظامئ للفرح، مات الجميع وحزنه لم يمت، وبقيتُ أنا يتيمَ الأرض وأرملَ القلب لم أبنِ لك قصرا لأنني خلت كوردان قد بنى دفاعا عن القرى الأخرى؛ فالأرض التي بها قصور لا تعرف الموت يا ذْهيبة.